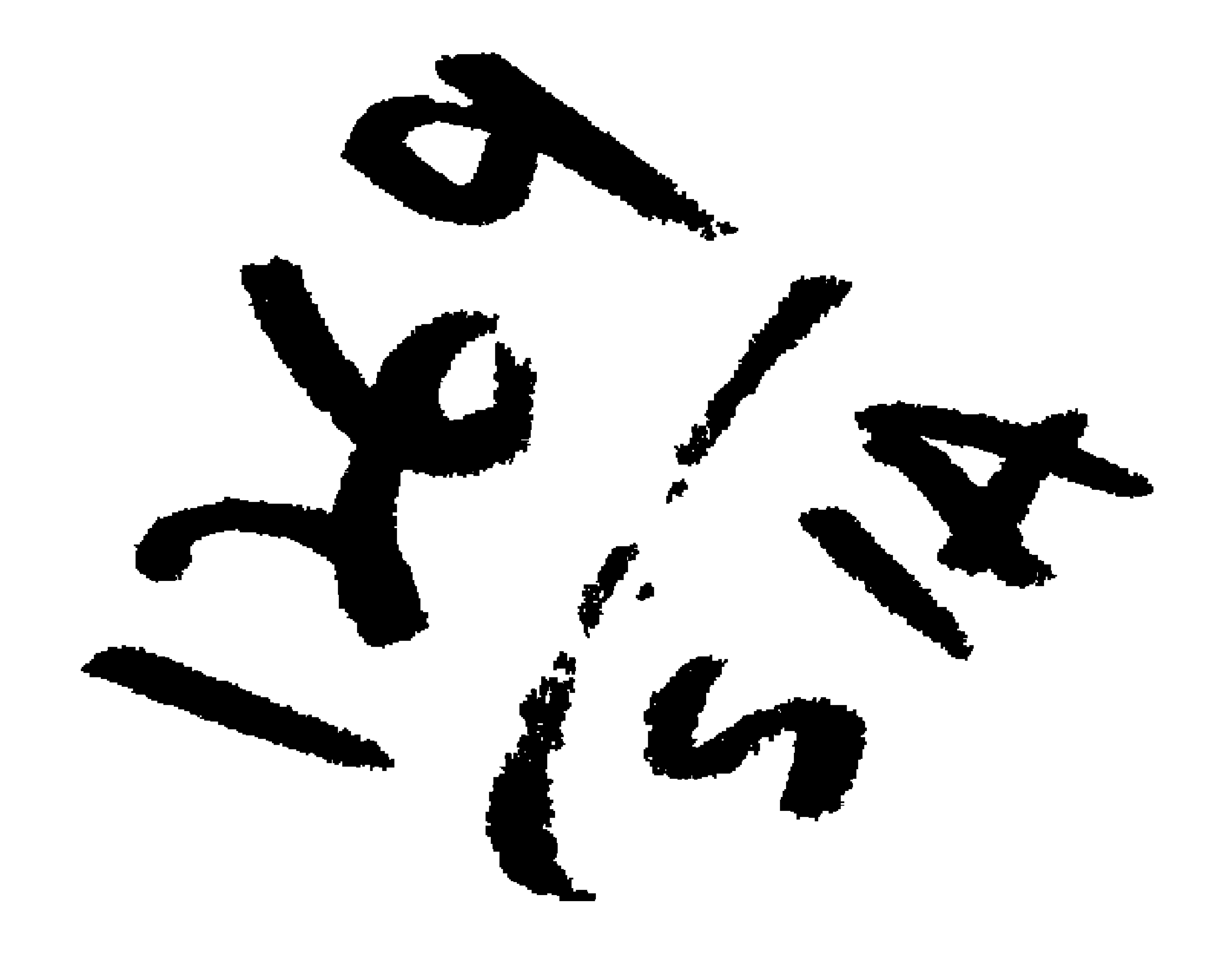


طوق الحمامة

في الألفة والألاف

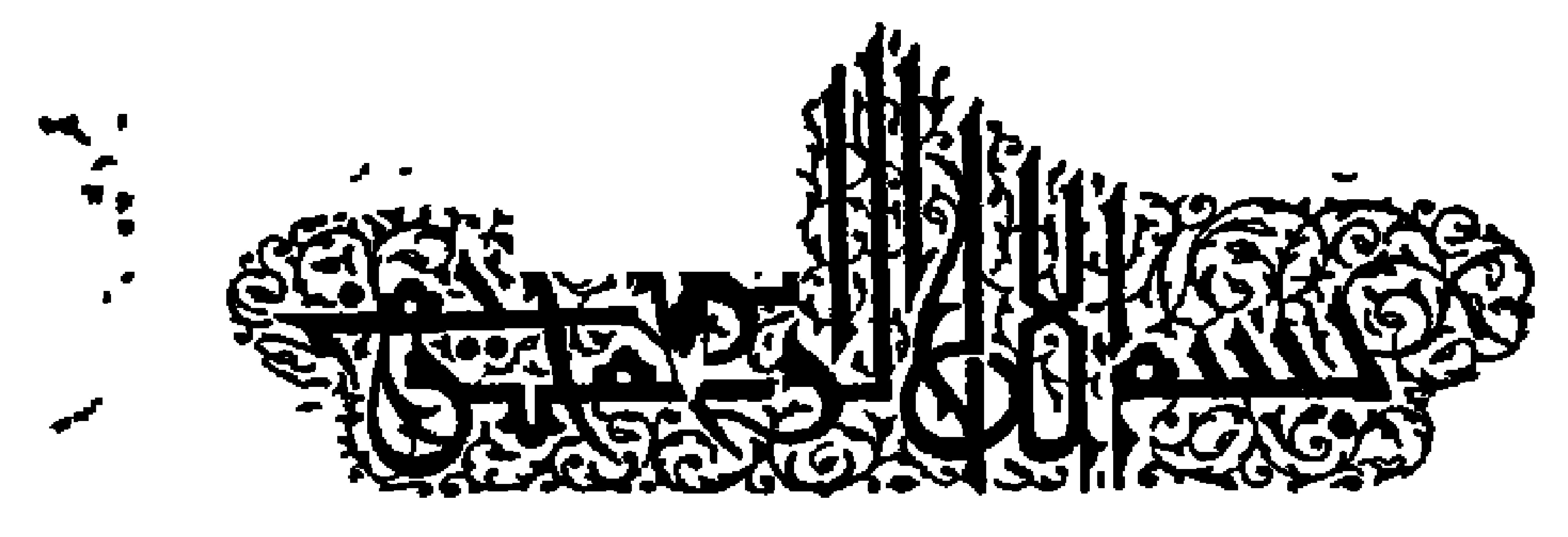
تأليف

الامام ابي محمد علي بن حزم الاندلسي

المتوفي سنة ٤٥٦ هـ

عنيت بنشره

مكتبة عرفة بدمشق



﴿ كلمة الناشر ﴾

كان اول معرفتي بطوق الحمامة ان رأيته في مكتبة المجمع العلمي العربي ، فرأيت خير كتاب في وصف الحب ، ودرس ادواره ، وتحليل حوادثه ، واحسن اثر في تراثنا الادبي يثبت للناس ان في ادبائنا من اوتي ملكة التحليل النفسي ، ومن استطاع ان يفهم الحب قبل عشرة قرون كما يفهمه الادباء اليوم ، وعجبت منا ومن هؤلاء المستشرقين كيف عنوا به ، ونشروه وخدموه ، وجهلناه ثم حسبناه كتاب دعارة ومجون فنلنا منه وعرضنا بصاحبه ، ورأيت انه من العار علينا ان يكون الكتاب لنا ثم ينشر في كل لغات الناس قبل ان ينشر بيننا ، ولا نزاع في ان المكتبة العربية لم تغلق على كتاب مثله في فنه ، فعزمت على نشره ليرى ادباؤنا عظمة الادب العربي وعلو ماوصل اليه ، من غير ان تضيرهم قراءته في اخلاقهم شيئاً ، بل انه سينفعهم حين يتحول ابن حزم الى واعظ تقي في فصليه الاخيرين : قبح المعصية ، وفضل التعفف ، وسيرون فيها ما ينفرهم من الرذيلة ، ويحبب اليهم مكارم الاخلاق ويبعدهم عن دركات الشر والهلاك فيعلمون ان في نشره ابتغاء الفضيلة وهدم الفسد وعلى الله التوكل

فقرات

مقتبسة من مقدمة الناشر الاول د . ك . بيتروف
الاستاذ في الجامعة الامبراطورية في بطرسبرغ (*)

الاستاذ بيتروف هو الرجل الذي استطاع ان يخرج للناس هذا الكتاب القيم ، وقد كاد يضيع فلا يبقى له من اثر ، وقد صدره بمقدمة طويلة ملأت اربع واربعين صفحة بالحرف الفرنسي الدقيق استهلها بشكر من ساعده على نشر الكتاب، من رجال الادب ومعاهده ولاسيما مجمع العلوم ومعهد الآداب في بطرسبرغ ، ومكتبة جامعة لايد

ثم اهدى الكتاب الى البارون فيكتور روزن...

ثم شرع في درس الكتاب وصرح انه يختص بهذا الدرس الغرباء الذين لا يعرفون العربية ، فلم نر لترجمته كبير حاجة ، وانما اخترنا منه هذه الفقرات التي تبين لنا مقدار الجهد الذي يصرفه المستشرقون في سبيل نشر تراثنا العلمي والادبي وتطلعنا على مبلغ اهتمامهم بهـذا الكتاب الذي يعد بحق من الاسفار الادبية النادرة المثال عند جميع الامم

قال الاستاذ :

لم يكن كتاب ابن حزم الموسوم بطوق الحمامة معروفاً قبل ان نشر دوزي في مجموعته لآثار لايد قطعاً منه صغيرة ، ويخصص له بعض صفحات من كتابه « تاريخ الاسلام في اسبانيا ، يترجم فيها بعضاً من حوادث ابن حزم العاطفية وما كان من حبه العذري ، وقد خدمه دوزي وعرف به الناس

ولكن هذا المستشرق لم يشأ او لم يستطع ان ينشر اصله العربي ، فقام من

(*) طبع الدكتور بيتروف طوق الحمامة سنة ١٩١٤ في مطبعة بريل في مدينة ليدن

بعده فرنسيسكوبيون بواغ يريد تحقيق هذه الامنية التي اوضحها وبين عزمه عليها لكثير من اصدقائه ، والتي مهد اليها بمحاولته تحليل الكتاب تحليلاً عاماً وترجمة فهرسته في مقالة نشرها سنة ١٨٩٩ عن كتاب الملل والنحل ولكن المنية عاجلته ولما يقدر على تحقيقها

ولم يكن في العالم الا نسخة واحدة من كتاب الطوق محفوظة في مجموعة فارنر في لايد وهي كراس مجلد عدد صفحاته ٢١٦ واسطر كل صفحة تتراوح بين العشر وخمسة عشر سطراً ، واضح الخط مشكول الشعر ، بين العناوين ، والحبر الاحمر مستفيض في اكثرها ، والناسخ يقظ جداً لايخونه قلمه الا نادراً ، وما الغموض (١) الذي يرى في الطوق الامن الاصل والمنى لامن الخط والنسخ

ولكنها ليست نسخة المؤلف ، وتاريخ نسخها متأخر عن عصره لانها نسخت في سنة ٧٣٨ للهجرة اي في سنة ١٣٣٧ للميلاد بقلم ناسخ مولع بها ، فرح بقدرته على اكمالها ، ثم ان الاسطر الاخيرة من الصفحة ١٧٦ تدلنا على ان كاتباً لم نعرف اسمه عمد الى اختصار الطوق وايجازه ، واختيار قسم من منظومه الجيد ، ولكنه قصر في هذه ايضاً ، فلم يثبت في اكثر الاحيان الا شطر البيت ، فنتج من هذا ان الاصل الصحيح للطوق ، لم يصل الينا ونحن نجهل كون الكاتب صرف جهده الادبي الى نسختنا هذه ، او الى نسخة غيرها او الى ثالثة هي اقدم عهداً منهما

ثم قال الاستاذ :

كان ابن حزم فيلسوفاً ومتألهاً ومؤرخاً وعالماً اخلاقياً وكان له اثره العظيم في تاريخ بلاده ، فترك لنا في كتابه طوق الحمامة مرآة جلية تبدو فيها هذه

---

(١) بذلت غاية جهدنا في اصلاح الغامض وتصحيح التصحيف وتركنا ما لم نهتد الى صوابه على علاته ونبهنا اليه

المواهب على اكملها ، وتتضح فيها مشاهد ذكائه الفنية ، وتظهر لنا فيها نواح عديدة من نفسه ، وهو فوق هذا مُرب ، ذو بصيرة وقادة وانتباه عظيم وقصصي ماهر وشاعر لطيف ، وله احياناً ذوق الناقد الادبي البصير ، مدقق في عادات المعاصرين شريف النفس ، مستقيم السيرة ، اما كتابه فخم الافكار ، واضح الاسلوب ، لذيذ ممتع .

ثم عمد الاستاذ الى بيان فصول الكتاب مما يغني عن ايراده الفهرس ، وعرض الاستاذ في بابه هذا بتخصيص ابن حزم فصلين من كتابه للكلام على قبح المعصية وفضل التعفف ، ثم تكلم عن تعبير ابن حزم لهذه الخطة التي اختطها لنفسه ووجد له العذر في ذلك فقال :

وقد رجع ابن حزم — كما قال — تصوير الحب ، من مبدأ امره الى ان ينتهي بالموت ، وتعقيب ذلك بصفات منافية له كالتي ذكرها عن الرائي ، فخرج على ترتيبه ولكنه ارانا سير الحب الطبيعي وعوارضه ، وكشف لنا عن هنائه وشقائه

ثم بدأ الاستاذ بدرس للكتاب ، لايعدو ان يكون تلخيصاً له يفيد — كما قال هو — من لا اطلاع له على الاصل العربي ، وليس له كبير نفع لقرائه فضربنا عنه صفحاً



٣٨٣ — و ٤٥٦

(ترجمة المؤلف)

مأخوذة من نفح الطيب وابن خلكان ومعجم الادباء واخبار الحكماء ودائرة المعارف لوجدي ، والاعلام للأستاذ الزركلي

نسبه

هو ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف ابن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن ابي سفيان صخر بن حرب ابن امية بن عبد شمس الاموي

وطنه

اصل آبائه من قرية اقليم الرواية من كورة لبلة من غرب الاندلس واول من دخل الاندلس من اجداده خلف

مولده

وكان مولده بقرطبة آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٣ وكان ابوه ابو عمرو احمد بن سعيد احد العظماء من وزراء المنصور محمد بن عبد الله بن ابي عامر لابنه المظفر بعده

حياته

كان مترجما وزيراً لعبد الرحمن المستظهر بالله ثم لهشام المعتد بالله ثم نبذ هذه الطريقة واقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن واوغل في الاستكثار من علوم الشريعة حتى نال منها ما لم ينله احد قط بالاندلس قبله وقد ناظر الباجي

شارح الموطأ فقال له الباجي انا اعظم منك همة في طلب العلم لانك طلبته وانت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب وطلبته وانا اسهر بقنديل بائت لسوق ، فقال ابن حزم هذا الكلام عليك لالك لانك انما طلبت العلم وانت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي وانا طلبته في حين ماتعلمه وماذكرته فلم ارج به الا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة فافحمه

مؤلفاته

وله مصنفات كثيرة العدد شرعية المقصد ومعظمها في اصول الفقه وفروعه وقد روى عن ابنه الفضل المكنى ابا رافع ان تآليفه في الفقه والحديث والاصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الادب نحو اربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين الف ورقة قال ياقوت وهذا شيء ماعلمناه لاحد ممن كان في دولة الاسلام قبله الا لابي جعفر محمد بن جرير الطبري فانه اكثر اهل الاسلام تصنيفاً

نكبته

وكان يحمل علمه ويجادل من خالفه فيه على استرسال في طباعه وبذل باسراره واستناد على العهد الذي اخذه الله على العلماء من عباده (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) فنفرت عنه القلوب وابعد عن وطنه وتوغل في البادية سنة ٤٥٦ هـ وهو في ذلك يبث علمه في العامة ويفقههم . ومما نكب فيه حرق مؤلفاته في حياته وتمزيقها علانية من قبل اعدائه وفي ذلك يقول :

وان تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل ان انزل ويدفن في قبري
دعوني من احراق رق وكاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
والا فعودوا في المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون لله من ستر

وله من قصيدة يخاطب بها حساده :

انا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي ان مطلعي الغرب
ولو انني من جانب الشرق طالع لجد على ماضاع من ذكري النهب

الى ان قال :

هنالك تدري ان للبعد قصة وان كساد العلم آفته القرب
وان مكاناً ضاق عني لضيق على انه فيح مهامهه سهب
وان رجالا ضيعوني لضيع وان زماناً لم انل خصبه جدب

طوق الحمامة

ولم يتعرض لذكر طوق الحمامة من مؤلفاته من ترجموه غير المقري في نفح الطيب حيث قال : قال ابن حزم في طوق الحمامة انه مر يوماً هو وابو عمر ابن عبد البر صاحب الاستيعاب بسكة الحطابين بمدينة اشبيلية فلقيهما شاب حسن الوجه فقال ابو محمد هذه صورة حسنة فقال له ابو عمر لم نر الا الوجه فلعل ماسترته الثياب ليس كذلك فقال ابن حزم ارتجالا :

وذي عذل في من سباني حسنه يطيل ملامي في الهوى ويقول
أمن اجل وجه لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسم انت عليل
فقلت له أسرفت في اللوم فاتئد فعندي رد لو اشاء طويل
ألم تر اني ظاهري وانني على ما ارى حتى يقوم دليل

وقد ذكر هذا الكتاب ابن القيم الجوزية في كتابه روضة المحبين في غير ما موضع

اقوال العلماء فيه

قال ابن صاعد وفيه قال ابو العباس العريف كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين

وقال الحافظ ابو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي مارأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين ومارأيت من يقول الشعر على البديهة اسرع منه

وقال بن بشكوال في حقه كان ابو محمد اجمع اهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام واوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والاخبار

وقال الذهبي : وكان اليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل العربية والآداب والمنطق والشعر مع الصدق والديانة والحشمة والسودد والرياسة والثروة وكثرة الكتب

وقال الغزالي رحمه الله تعالى : وجدت في اسماء الله تعالى كتاباً لابي محمد ابن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه

وقال ابو مروان بن حيان : كان ابو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب ومايتعلق باذيال الادب مع المشاركة في كثير من انواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة وله في ذلك كتب كثيرة

خاتمة

هذا طرف من سيرة هذا الامام الكبير ، والوزير الخطير ، ترى منها صفاء نفسه ، ورقة شعوره ، وعلو همته ، وشدة مراسه ، وثبات اعتقاده ، وقوة يقينه ، وتعلم انه بهذه المواهب النادرة استطاع ان يكون وزيراً بارعاً في السياسة ومؤلفاً بارعاً في الادب ، وفقيهاً اماماً في المذهب ومناضلاً ثابتاً في النضال ، رحمه الله وغفر له .

دمشق : غرة ذي الحجة ١٣٤٩

محمد ياسين عرفه

مقدمة

بقلم الشاعر العربي الكبير الاستاذ الزم

ماوفق البشر ولن يوفق الى خدعة اطرف ولااطرف من خدعة تكريم العظماء وتعظيم الناسين والتنويه بذكرهم ودلالة الناس على سر عظمتهم والرفع من اقدارهم الى حيث ينالون نقص مايجب لهم من لهج الناس بهم والحرص على ما أسأروه من آثار قيمة ومتاع باق مستقر

ولهذا ماراه ونسمع به من اقامة المهارج والاحتفال في عقد المواسم ورفع النصب والتماثيل والحفاوة باخراج الكتب بتراجم الرجال واحوال العقريين فرادى ومجتمعين

وسواء أكان الناجح فاتحاً قذف نفسه في لهوات الموت في الذود عن امته او عالماً أذاب مهجته في مهج الحادث وقضى دهره بالاستنباط والتأليف اومخترعاً وقف عمره على نفع ابناء جلدته او الانسانية جمعاء ، اوشاعراً سكب روحه دموعاً ونفسه حسرات واراق دمه عبرات بل شعر يبقى بقاء الدهر ويجري جريان الفلك ، فان للامة من تكريمه والصعود بشأنه غاية واحدة لا تتعدى الارتفاق بما تركه لها من تراث . ولا فرق عندها ان يكون هذا التراث سيرة او علما ، احتراعاً او شعراً ، او اي شيء غير ذلك مما يعود عليها بالنفع

وقد تخدع الامة نفسها فيذهب بها الظن الى ان تحملها باعثها ان هو الا الاريحية المهيمنة وهزة الكرم العالية في حين ان من تعنى بشأنه وتشيد بذائع صيته كثيراً مايكون ممن اوسعتهم مقتاً وهجراناً وطوت كشحها عنهم جفاء واعراضاً

فلم يالوا من رها الا انهم نحوا بعض النحاة من كيدها وعدوانها اذ لم تكن المباشرة قتلهم الا بسطها حقوقهم والانصراف عنهم والتلهي عن لايلق بعارهم حتى اذا مات احدهم بحسرته حتف أنفه تلك الميتة البائسة الشقية وقيض الله له من طرائه البائسين او غير البائسين من يجمع اخباره ويدون أحواله ويشير الى القيم من آثاره ليحله التاريخ من صدره مكاناً رحباً ومقعد صدق مكين ثم استمر الفلك في دورته والايام في تقلبها ، واعتورت الامة الاحداث ومست الحاجة الى الارتفاق بما ترك ذلك النابغ هبت الامة او هب منها تعلي من امره وتحيي ما كاد يندثر من اثره . وهذا لايكون منها على العالم الامد ان تطمئن من انسه امسى سراً مكتما بين ثنايا التراب وهباً مقسماً في احشاء ديدان الارض . اي لاتفعل هذا لشيء من العطف عليه اولخير تزيده له بل لتثير به الهمم وتحرك النفوس وتبعث في بعض القلوب نار التأسي وحرارة حب الاقتداء فلا تعدم من ابنائها على وجه الدهر وكر الاعصار رهطاً يجود بنفسه على التفادي في سبيلها في ناحية من نواحي الحياة

واكبر فائدة تجنى من كتب التراجم أو التاريخ على الجملة هي ان يكون للعظمة سبيل لايعفو رسمها ولاتمحى معالمها فلا يعدم طالب المجد في كل امة من مختلف الشعوب من نظرة في كتب التاريخ تكون له نبراساً فيما يطمح اليه وفرقداً وضاء ينير له طريق ما يقتحمه ويسمو اليه فيأمن العثرة ويتجنب مواطيء الكبوة

ولو كان لكل امة ان تفاخر بمن مضى من رجالها المفرين ، وافذاذها النابهين . وانتهى الامر لهذه الامة العربية لكان لها من عظمائها ونوابغها العدد الدثر والحظ الاوفر ولنالت القدح المعلى والمكان الارفع بين امم الارض

وقد جرت السنة ، ونعم السنة ماجرت ، ان تعاد الكرة بالتنبيه على قدر كل عظيم عندما يراد الانتفاع بشيء مما سمحت بنانه ، او قذف به خاطره .

وابن حزم ، ولا كفران ، في الذروة من اولئك الذين يجب ان تستثار بهم همم الناشئين وتحرك بذكرهم عبقرية العبقريين . وان من بعض الوفاء للتاريخ والعلم لا لابن حزم ، ان نعرض على الناس من ابن حزم صورة صادقة بقدر ماتسمح لنا مسافة القول في هذه الكلمة الموجزة نجلو بها من حقيقة امره وكنه ذاته مايغري مطالع كتابه هذا بان يتتبع كل أثر من آثاره ، وما اكثر هذه الآثار وأعرقها بالبقاء لو رفقت بها او أبقت على مجموعها يد الدهر العاتية

لم يستطع احد ممن تكلم عن ابن حزم ان يصعد بنا الى القمة التي تربع ذروتها ، واحتل قنتها كما انهم عجزوا بعض العجز اوكله عن ان يأخذوا بيد قارىء ترجمته الى حيث يجب ان يقف من اعظام الرجل واكباره . وكأنه هو لما رأى بوادر ذلك من اهل دهره في اقليمه لم يشأ ان يحرمنا من نفثات يعرفنا بها بعض ماخشي ان يغمطه بعد الموت ، فمن تلك النفثات هذه القطعة وفيها صورة بينة تشير الى حرقة متأججة ، وحسرة صالية على ماسلبه الدهر من مكانة ، وحرمه من علو . قال :

انا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي ان مطلعي الغرب

اما الطلق الذي لاعيب فيه سوى بلدي واني غير طاري
تقر لي العراق ومن يليها واهل الارض الااهل داري
طووا حسداً على ادب وفهم وعلم ما يشق له غبار
فمهما طار في الآفاق ذكري فما سطع الدخان بغير نار

ولولا ماني به من علماء عصره ، وشهرهم الحرب عليه وانتهاء هذه الحرب بتراجعه بعد احراق كتبه وفراقه قرطبة مهد عزه ، ومثوى عظمته ومثار عبقريته ونبوغه ، الى موطن احداده حيث قضى واولا انه كان حريئاً متمرداً على الاقدمين ، نقاداً وثاباً على غير المخلص من العلماء ، من حاضر اوماض ، صلب العريكة ، صعب المقادة ، صلداً فيما ترجى فيه الهوادة وطلب اللين يحمل بين فكيه ذلك اللسان العضب الذي قيل فيه ، انه شقيق سيف الحجاج ، لكان

ابن حزم في الاندلس بلا راع صخرة واديها وحجر الارض فيها ورجل الدهر في عامة امصارها ، ولقد سامت الحق او واشكه من قال : ان ابن حزم كان يجهل سياسة العلم لانه كان يجادل من خالفه على استرسال في طباعه وبدل باسراره ، ولم يكن يلطف صدعه بما عنده تعريض ، ولا يرقه تدريج بل كان يصك معارضه به صك الجندل ، وينشق متلقفه انشاق الخردل . فنفر عنه القلوب وألب عليه الخصوم

وناهيك رجل ينشأ في مقاصير العز والثراء على عروش الحكم واسرة المجد يتردد من نبله وعلمه ورتبته عند السلطان بين عرش يجله ربه وسرير يمتطي صهوته متقلباً على طنافس النعيم ونمارق السعادة يشمخ بانفه عن الوزارة وينأى بطرفه عن صحبة الملوك فلا يرى متعة لنفسه الا السعي وراء العلم للعلم . فلا يزال يسمو ويرتقي ويقرأ ويكتب ويؤلف على منابر الذهب والفضة ، على ما في الجدة والنعيم من مشغلة عن العلم ، حتى يكون له من التأليف ما لا يكون لرجل غيره في الغرب قاطبة الا ابن جرير الطبري في المشرق ، ولو انصفه رجال دهره ورزق شيئاً من اللين فيما يصدع به من امره وما يحاوله من اصلاح في الدين والعلم لانضوى تحت لوائه كل حامل محبرة او نمل في علم ودين

رجل هذا شأنه يطلب اليه احد اهل معرفته ان يضع له كتاباً في الحب على بعد مكانه وسمو مكانته عن الكلام في الحب . فلا يعدم من كرم خيمه ، ورقة طبعه أريحية مضطرمة ، وقريحة مطواعة ، وخاطراً سمحاً وقلماً يرسل من بين شقيه شؤبوباً من جزل القول ورصينه يبتدع ذلك ابتداعاً ، ويرتجله ارتجالا من غير سابق عهد به او أثر يجري عليه ويحتذي حذوه . واني لاعجب مهما ترفعت عن العجب لهذه النفس ، نفس ابن حزم الدائبة المكلومة بسهام الصبوة العفة بل الروح المحصلة الندية بماء الشغف والشوق تلك الروح الناعمة التي صقلتها رحمة الحب الطاهر وثقفتها نار الكلف بالجمال . كيف تحدثك اصدق

الحر عما كان لها وعليها في عابر دهرها وعنوان شرحها ، وتقضي اليك بان كان لها الحظ الاوفر من احترام ما حظته شان الخالق من حسن وجمال ، وما وقعته على صفحة الوجود من بديع الصور . ذلك الاحترام الظاهر من دون الريبة كما اراد ان يدلنا عليه في اول كتابه وآخره حيث قال : وسأورد في رسالتي هذه اشعاراً قلتها فيا شاهدته فلا تنكر ات ومن رآها علي اني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه ، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر واكثر ذلك « فان اخواني يجشمونني القول فيا يعرض لهم على طرائقهم » ثم بعد شيء من وصف شأن الحب يقول « واني لاعرف هذا واتقيه ومع هذا يعلم الله وكفى به عليما اني بريء الساحة ، سليم الاديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجزة » ويداخله الحرج فيرجع فيقول في آخر الكتاب : « وانا اعلم انه سينكر علي بعض المتعصبين تأليفي لمثل هذا ويقول : انه خالف طريقته وتجافى عن وجهته ، وما أحل لاحد ان يظن في غير ما قصدته

الحب قديم والنشر ان لم نقل الحيوان نتيجة من نتائجه وقد عرفه الانسان قبل ان يعرف الكلام فهو رفيق النشر منذ طفولة البشرية والكلام فيه يرجع الى العهد الذي اخذ الانسان يعبر فيه عما يخامره من نوازع نفسه ومضطرب فؤاده وقد كان نصيب الامم من الاجادة في نعته والكلام عليه اكثاراً واقلالا تابعاً لحظها منه وعلاقته من ارواحها ونفوسها ولمقدار ما لديها من صفاء القرائح وقوة الطباع على القول والوصف والتخيل

والامة العربية احدى الامم التي كثر حظها من الحب ونصيبها من الكلام في شأنه لرقة طباعها ولين عواطفها وتجافي اكبادها عن الغلظة وقلوبها عن القسوة الا في بعض مواطن العصب لما يوجبه الذود عن الاعراض والنفوس ، فقد عرف العرب الحب وتفننوا في تعريفه ونعته ووصفه حتى صار الشغل الشاغل

للحم الكثير ممن وهب قوة القول منهم سواء في دلك الشاعر والناثر والعالم والفقيه والمحدث والمتصوف والحكيم

وقد اوسعوا له من لغتهم سمة تدل على مكانه من هوسهم ومكانهم من الفلسفة الفطرية ومقدار مالديهم من الخلابة والاقناع فلو جمع ماحصوه به من الشعر والنثر المنثوث هنا وهناك من كتب الادب والتاريخ والاجتماع لضاقت عنه صحائف الأجلاد مما لم تستطع فلسفة القرن العشرين اي الفلسفة الحديثة مما دعمها من فن وعلم وماتقدمها من فلسفات ان تزيد عليه شيئاً يذكر

وقف العرب من لغتهم للحب طائفة بل طوائف من الالفاظ تغدو وتروح بين اسم له او صفة تلازمه او حال ينتهي اليها هو او من وحل به وتورط في هوته مما لم تتسع للجود به يمين لغة من لغات البشر وقد اتى على معظم دلك ابو بكر ابن قيم الجوزيه في كتابه روضة المحبين فكان ماجمعه من دلك خمسين لفظة تعهدها بالشرح وتعقدها بالتحقيق والتدقيق مثل الحب والعشق والشوق والهوى ، والصبابة والشغف ، والمقة والوجد ، والكلف واللوعة ، والتتيم والغرام . مما يحمل الوقوف عليه كل دي اربة يود ان يعرف مالاحداده العرب من حواطر ملهمة واحوذية خارقة

ومهما قال القائلون في الحب فلن يتجاوزوا في الدنو من اصابة المرمى ، والوقوع على ما يشبه الحق قول ابن سقاء الكوفة احمد بن الحسين المتنبي اد قال :

لهوى النفوس سريرة لاتعلم عرضاً نظرت وخلت اني اسلم

ولم يقصر عنه في الاحسان من قال :

يقول اناس لو نعت لنا الهوى فوالله ما ادري لهم كيف انعت

فليس لشيء منه حد احده وليس لشيء منه وقت موقت

وما اصدق قول أحد العرب واجمله واجمعه واوجزه وقد وشي اليه بان ابنه

يحب فقال : دعوه فانه يلطف وينطف ويطرف . وقال احد الفلاسفة : لم أر حقاً اشبه بباطل ولا باطلاً اشبه بحق من العشق هزله جد وجده هزل وأوله لعب وآخره عطب ، وقيل لابي زهير المديني ما العشق فقال : الجنون والذل ، وهوداء اهل الظرف وما احسن قول الشاعر :

اذا انت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

وقول الآخر :

وما سرني اني خلي من الهوى ولو ان لي ما بين شرق ومغرب

ولآخر :

وما احببتها فحشا ولكن رأيت الحب اخلاق الكرام

وسأل المأمون يحيى بن اكثم عن العشق ماهو فقال هو سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه وكان ثمامة بن اشرس حاضراً فقال اسكت يا يحيى انما عليك ان تجيب في مسألة طلاق او محرم صاد ظبياً او قتل نملة فاما هذه فمسائلنا نحن فقال له المأمون قل ياثمامة فقال : العشق جليس ممتع واليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه لطيفة ومذاهبه غامضة واحكامه جائرة ملك الابدان وارواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها واعطي عنان طاعتها وقود تصرفها توارى عن الابصار مدخله وعمي في القلوب مسلكه فقال له المأمون احسنت والله ياثمامة وامر له بالف دينار

وكلام الناس في الحب على اختلاف أصقاعهم وتنائي اقاليمهم وتباين اجناسهم يكاد يكون منحصراً من معين واحد لان الحب واحد والبشر فيه سواسية وهو « حق لايجوز ان يحرم احد منه » فقد يقذف الشرقي الكلمة في شأن من شؤون الحب فتجيء وفق كلمة قالها الغربي كأن الكلمتين صدرتا عن ضمير واحد ، فما يجري هذا المجرى ويسلك هذا النهج من الاتفاق ان احدى محاكم فرنسا وضعت قانوناً للحب جاء فيه ، ولعله احسن مافيه : « كل عمل يمليه الحب

ينتهي بالتفكر في جنبيه » وهو معنى عرض لكثير عزة قبل اثني عشر قرناً وزيادة في حال وقعت له تراه بيناً في الثالث من هذه الابيات قال :

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم اذا غاله من حادث الدهر غائله
يود بان يمسي سقيما لعلها اذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويرتاح للمعروف في طلب العلى لتحمد يوماً عند عز شمائله

وقد اراد الذيب الى معنى البيت الاخير السيد توفيق البكري صاحب كتاب صهاريج اللؤلؤ فضل الطريق واخفق في ستر الاخلاس فانتزعه انتزاعاً شائناً مع نقص الاحسان بزيادة المعنى فقال :

واطلب المجد والمكرمات لتحسن لي شيمة عندك

وقبيح ما الا نشاطر القاريء لذة القصة التي دعت كثيراً لارتجال الابيات الثلاثة وهي من غرائب الاتفاق وطرائف قصص العرب وذلك انه كان لكثير غلام يتجر على العرب فاعطى النساء الى اجل فلما اقتضى ماله منهن وفيهن عزة ماطلته فقال لها يوماً وقد حضرت في نساء ، اما آن ان تفي بما عندك فقالت كرامة لم يبق الا الوفاء فقال صدق مولاي حيث يقول :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

وهو بيت مشهور من قصيدة لكثير بحبيبته عزة هذه فقلن له أتدري من غريمتك فقال لا فقلن هي والله عزة فقال اشهدكن على انها في حل مما عندها ومضى واخبر كثيراً بالحكاية فقال : وانت حر وما عندك لك وكان ماوهبه اياه الف دينار وانشد الابيات المتقدمة وفيها من الصراحة مايغر منه اكثر الناس وهو ان ما اتاه هذا وماحرص ويحرص عليه من استجماع انواع المكارم وضروب المحامد ان هو الاليتهي اليها ويقرع سمعها

وطوق الحمامة ان صح انه اول كتاب اخرج للناس في الحب فهو على كثرة ما الف بعده في موضوعه لايزال يتفرد بمحاسن ويتسم بخصائص تقضي

له بالمكانة العليا بين هذه الكتب فن ذلك المامه ببعض مايتفاهم به المتحابون وتعريجه على الخوض في معرفة سياسة الحب وما يلزم الوجل فيه من حذر واحتراس وعطفه على التماس العلة في ان النساء اكثر تعرضاً للحب واشد اشتغالا به من الرجال لكثرة فراغ النساء وزيادة مشاغل الرجال ، ولست بواجد عند احد ممن الف في الحب مثل قول ابن حزم في باب الهجر عن هيبة المحبوب وما تلمه الذلة من العاشق امام المعشوق كما انه قد نزه كتابه عن كثير مما شان به المؤلفون في الحب كتبهم من اوهام واباطيل فانك لاترى في طوق الحمامة شيئاً مما شحن به صاحب تزيين الاسواق كتابه من الخرافات السمجة والاوهام المستبشعة وما تطرف به مجان الشعراء من ادعاء عشق الحيوان ووضعهم الشعر على لسان العشاق من الحمير وغيرها مثل الراع !! فهو يعتذر في اول الكتاب عن ترك ماهو اولى من هذا بالتدوين فيقول : « ودعني من اخبار الاعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت عنهم الاخبار وما مذهبي ان انضي مطية سواي ولا اتحلى بحلي مستعار »

وان في هذا الاسم طوق الحمامة من الخيال والشعر والطلاوة والحسن والنعومة والطراوة مايشعرك بان الاندلسيين قد بلغوا من التأنق والتنطع في انتقاء الالفاظ واستحداثها والتصرف بها في وجوه التسمية حداً كادوا ان يبزوا به على من تحدوهم وجروا على آثارهم من العاددة والمشارقه وسيمر بك مما يدل على حذق الاندلسيين هذا الشيء الكثير امثال : صبح ، وغزلان ، وحلوة ، ودعجاء ، وطروب ، وواجد ، اسماء لجوار وعجيب اسم لغلام

ومما لاريب فيه ان عمل ابن حزم في تأليفه هذا انما هو عمل القلب الجريح للكبد المصدوعة والروح المتألمة للارواح البائسة تجد فيه الموتور من المتعة والسلوة ما لايجده المتيم المهجور في النديم المساعد المخلص على الراح . وجميل بنا وقد دللنا على بعض محاسن طوق الحمامة ان نتناولها بشيء من النقد وان كان انما

كتبها لصديق وانه قد اخذ على نفسه ان لايبحث فيها الا عما علمه وشاهده وحل عنده محل اليقين من نفسه واهل عصره

لم يحس ابن حزم باقتصاره على شعره في طوق الحمامة فقد قيد نفسه من هذا بقيد ضيق عليه المضطرب وثقل من خطاه وقصر من مدى حريته وكف من جولانه في طيات الموضوع وكأن ابن حزم لم يكن يريد ان يحشر مع الشعراء او يطلع على الناس بديوان شعر اكتفاء بمكانته العلمية وزعامته الدينية وصعب عليه ان تمتد يد الضياع ملامة شعره فآثر ان يحمل من طوق الحمامة مدخراً امينا وحرزا مكينا على هذا المقدار من شعره

ومهما اخطأ التوفيق ابن حزم بعمله هذا فقد افادنا ما كان يخامره من الصبوة الى نظم الشعر والنزعة الى صناعته وانه كان يغالب نفسه ويخالفها في صرفها عن الشعر وانه لو لم يكن ذلك الفقيه الكبير والمحدث العظيم رجل المنطق والكلام وفحل الجدل والمناظرة والبالغ من الفلسفة درجة التجويد لكان للاندلس منه شاعر لايدع الى جانب اسمه ذكراً لشاعر في قطره فضلا عن ان اختصاره على شعره قد حال بينه وبين شيء من الاحسان واقام حاجزا دون بلوغه الغاية المرجوة من امتاع القارىء لانه كثيراً مايشرع بايراد خبر فاذا بلغ مكان اللذة منه بتره فجأة وحملك على ان تقرأ قطعة شعرية له تشبه ذلك الخبر اوتجري مجراه ولا تحوي الا شيئاً قليلا من طرافته ولذته . وخير مايقال في شعر ابن حزم انه صوب قريحة فطن في جوانبها من الفلسفة والفقه والكلام مايفسد على اكثر الشعراء شاعريتهم ولهذا تراه ينحدر في شعره ويسف بقدر مايترك من قياده للفلسفة والكلام يذهبان به ويجيئان في اغراض تلك مرة ومآرب هذه اخرى ولو نجا من ذلك لجاء من شعره مايجري مع الطبع ويتغلغل في اجزاء النفس ويشتد شبهه بكلام العرب ولمثل من صبابة اهل البادية المروحة رقة الحضر وخنوثته ومايتبع هذا من ذل وضرع واستكانة وتهافت على عتبات الخضوع

لسلطان الهوى وجبروت الحب ما لايقل عن شعر كثير وجميل وابن ابي ربيعة وذي الرمة

ولم ينج بن حزم من الوقوع في احابيل الفلسفة في اول كتابه فقد اوشك ان يرتبك بعض الارتباك حين قسم اعراض الحب ثم فطن الى ان الحب انما هو عرض فحمل ذلك من مجاز اللغة واقامة الصفة مقام الموصوف وهو قول مستمد من قول القدماء من ان العرض قد يرتفع الى مقام الجوهر فيكون له من الاعراض ما للجوهر وهو قول يتردد بين السفسطة والجهالة وقد نظمه احد شعراء العرب فقال :

فسد القيـاس فللغرام قضية ليست على نهج الحجى تنقاد
منها بقاء الشوق وهو بزعمهم عرض وتفنى دونه الاجساد

وخرافة اخرى علقت ابن حزم في طوق الحمامة فلم ير لنفسه منتدحاً عنها وهي ذهاب فلاسفة اليونان الى ان الارواح كان لها قبل اتصالها بالاجسام وهبوطها من عالمها الاول إلفة وتمازج وحب فلما باشرت هياكلها من الاجساد كان لها من الحنين ونزوع بعضها الى بعض بقدر ماوجدته من شفافة الاجساد ورقتها ولطافتها ومرونتها وقد علق ابن حزم بشرك هذا الوهم ولكنه اجاد في صوغه وتعليله ومَوَّه له زخرفاً براقاً مشى به الى ما يرادف من الحقيقة كما اجاد « معاصره » ابو علي بن سينا في عينيته بالروح وهي قصيدة مشهورة شرحها كثيرون ومطلعها :

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وقد الح الشعراء من المتصوفة كابن الفارض وغيره ينقلون هذه الفكرة ويوردونها على وجوه مختلفة يتفننون بها حسب مالديهم من قوة الشعر ، ولقد اجاد وطرف وحسن الجبرازري الشاعر في حوك هذه الخرافة فقال :

ولكن ارواح المحبين تلتقي ... اذا كانت الاجساد عنهن نوّما
واحسب روحينا من الاصل واحد ... ولكنه مابيننا قد تقسما
ولو لم يكن هذا كهذا ماتألمت ... له مهجتي في الغيب لما تألما

ولابن الفارض نظم في هذا المعنى :

بيني وبينك في المحبة نسبة ... مطوية من قبل هذا العالم
نحن اللذان تعارفت ارواحنا ... من قبل خلق الله طينة آدم

وقد يكون ابن حزم اول من اطل على الناس بمؤلف في الحب الا اذا كان ابن سينا في الشرق قد تقدمه بوضع رسالة في العشق لان وفاة ابن حزم تأخرت عن وفاة ابن سينا بثمان وعشرين سنة كما ان ابن سينا تقدم ميلاده لدة ابن حزم باربعة عشر عاماً ولا اعتقد ان واحداً منهما وقع اليه ما كتبه الآخر في الحب يدل على ذلك اختلاف المنحى وتباين الجهة في مقصد التأليف

على ان رسالة الرئيس ابن سينا لايصح في حال من الاحوال ان تسمى تأليفاً وان كان سبب كتابتها الاقتراح كما اقترحت رسالة ابن حزم وان هي الا فكرة فلسفية عرضت له كما عرضت لمن تقدمه وتأخر عنه من فلاسفة اليونان والاسلام والصوفيين فتكلموا بالفلسفة باسم الحب واستخدموه لاغراضها كما استخدم اخوانهم النحاة المنطق لاغراضهم (لا لاغراض النحو) فافسدوا النحو على العرب كما افسد هؤلاء ابحاث الحب وانك لترى ابن سينا على جلالة قدره وعلمه يتكلف ويجشم نفسه محاولة اثبات ان العوالم الثلاثة الجماد والنبات والحيوان بانواعه خاضعة لقانون الحب مذعنة لناموس تجاذبه فيبلغ في معالجة ذلك وتتبع علله والتماس اسبابه حداً يكاد يشرف منه على السخف وينتهي الى مايشبه الحمق (ان صح ان يكون سؤ التقليد سخفاً وحمقاً) ولست بمحاول بهذا ان اضع من شأن ابي علي وشأنه في العلم والفلسفة ماهو مشهور ولكنها الجهرة بالحق والصدعة بامره واجبة يقود اليها الاخلاص كما قاد ابن سينا وابن حزم وكلاهما

مأخوذ بعاطفة الدين يخشى ويتندم ويؤثر ان لايؤثر عنه مايخدش سمعته او يدفع بعض المتعصبين الى النيل من دينه ، فكما عد ابن سينا العشق من وجهته الحيوانية نقيصة وعاراً فقد نقل نقل متثبت واثق ان العقلاء الاكياس يعدون النظر الى الصورة الجميلة فتوة وتظرفاً واستنتج من هذا وبطاثره ان الحب ليس حتما فيه ان يكون حيوانياً وينتهي به البحث الى ان الحب مهما تخلله من قرب ولمس ان لم تكن الغاية منه الفحش تظرف وفتوة ورجولة ومروءة وانه حينما تكون الصورة الجميلة الحسنة فثمة الاعتدال في التركيب مما يفيد طيباً في الشمائل وعذوبة في السجايا ويحمل من هذا الحديث القائل : اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه ، وفي هذا من الاخلاص للعلم مالم يوفق اليه بل ناصبه وعاداه بعض من الف في الحب وغيرهم ممن اخذ على عاتقه من طريق التحشية والشرح ان ينال من دين الناس بل متسرع لايدري من امور الدين الا ظواهر براقة محكوكة الجبهة بالثوم فأساء الى الناس والدين وزعم ان بين من يتوهم بهم اتيان الموبقات بين سمع الناس وبصرهم من لايهم من الدين قدر ما يهمهم ويؤذيهم بقوله ان للمتقين مفازاً كأنهم يحولون بينه وبين مفازه او كأنه احرز صكا بذلك المفاز ذاهلا عن ان بين هؤلاء من يحمل قلماً يضطرب به من معرفة ذات الله وجوهر الدين مالامطمح له بعضه وان نقاء السرائر وطيب القلوب ليس بالتظاهر والدعوى

وما اشبه كلمة ابن سينا هذه بقول ابن حزم في ماهية الحب وهي : الحب اعزك الله اوله هزل وآخره جد دقت معانيه لجلالتها عن ان توصف فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة اذ القلوب بيد الله عز وجل

كان ابن حزم رحمه الله تنبأ بما سينشب بين العلماء من خلاف في اعتبار الحب اختيارياً عند قوم واضطرارياً عند آخرين وان الفرقة الاولى ستستنتج

من كونه اختيارياً مايصح ان يكون سبباً لتجريحه فيوقعون الناس من الدين في حرج وهم وان اخلصوا في هذا الدين فانهم لم يخلصوا للفن الذي يكتبون فيه على ان الاخلاص في العلم فطرة لازمة لحامليه والناهضين باعبائه فلا تظن ان احداً ضمت جوانحه على شيء من العلم او اشتملت ترائبه على قليل اوكثير مما يسمى فناً الا وفي قلبه جذوة تتوقد وتهيب به ممسكة بمقادته الى الاخلاص طوعاً اوكرهاً مهما اعتورت طريقه العثرات وانتصب امامه من عقاب الا من كان دخيلا في العلم دعياً بين ابنائه

وما دام امد القول في شأن ابن حزم يجب ان يكون قصيراً وحبله مقتضباً عن التطويل فلا بأس ان نخرج الى كلمة ختام يحتمها علينا الايجاز ويدعو اليها المقام ويقضي بها الرفق بالناشر وهو انما طبع كتاباً لايعوزه اكثر من تعريفه الى قرائه مع شيء من ذكر قيمة مؤلفه وان كان الواجب يقضي علي بان امد في نفس القول كيداً به ونكاية له وطلباً لارهاقه بزيادة نفقة الطبع كما ارهقني وحملني على الكتابة اشد ما كنت مفتقراً الى الراحة وترك التفكير بيد اني رجعت الى نفسي وفطنت الى ان لاخطر ولااصرر عليه من هذا مادام القراء هم القائمون بهذه الزيادة في الانفاق راضين او مكرهين ، وهم المستحقون للعقوبة لانهم اصل البلاء ولولاهم لاستراح كثير من القرائح والاقلام في هذا العصر . وكفى القراء عقوبة ان لاسبيل لهم الى هذا الكتاب الممتع الا عن طريق هذه المقدمة فهي قنطرة لاينجو من تكلف عبورها الا من يحسن الطفرة ويجيد الذروة ، وما اخالهم فاعلين وقد دفعوا ثمنها في جملة ثمن الكتاب .

« محمد البزم »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ﴾

قال ابو محمد عفا الله عنه افضل ما ابتدىء به حمد الله عز وجل بما هو اهله ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة وعلى جميع انبيائه عامة . وبعد عصمنا الله واياك من الحيرة ولا حملنا ما لا طاقة لنا به وقيض لنا من جميل عونه دليلاً هادياً الى طاعته ووهبنا من توفيقه ادباً صارفاً عن معاصيه ولا وكلنا الى ضعف عزائمنا وخور قوانا ووهاء بنيتنا وتلدد(١) ارائنا وسوء اختيارنا وقلة تمييزنا وفساد اهوائنا فان كتابك وردني من مدينة المرية الى مسكني بحضرة شاطبة تذكر من حسن حالك مايسرني وحمدت الله عز وجل عليه واستدمته لك واستزدته فيك ثم لم البث ان اطلع على شخصك وقصدتني بنفسك على بعد الشقة وتنائي الديار وشحط المزار وطول المسافة وغول الطريق وفي دون هذا ما سلى المشتاق ونسى الذاكر الا من تمسك بحبل الوفاء مثلك ورعى سالف الاذمة (٢) ووكيد المودات وحق النشأة ومحبة الصبى وكانت مودته لله تعالى ولقد اثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون وكانت معانيك في كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك ثم كشفت الي باقبالك غرضك واطلعتني على مذهبك سجية لم تزل علينا من مشاركتك لي في حلوك ومرك وسرك وجهرك يحدوك الود الصحيح الذي انا لك على اضعافه لاابتغي جزاء غير مقابلته بمثله وفي ذلك اقول مخاطباً لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن امير المؤمنين الناصر رحمه الله في كلمة لي طويلة وكان لي صديقا

اودك وداً ليس فيه غضاضة   وبعض مودات الرجال سراب

---

(١) التلدد حيرة (٢) الذمام الحق : الحرمة : والجمع اذمة

واحصنك الصحيح الصريح وفي الحشى   لودك نقش طاهر وكتاب
فلو كان في روحي هواك اقتلعته   ومزق بالكفين عنه اهاب
وما لي غير الود منك ارادة   ولا في سواه لي اليك خطاب
اذا حزته فالارض جمعاء والورى   هباء وسكان البلاد ذباب

وكلفتني اعزك الله ان اصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه واسبابه واعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا متزيداً ولا مفنناً (١) لكن مورداً لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما اذكره فبادرت (٢) الى مرغوبك ولولا الايجاب لك لما تكلفته فهذا من الفقر والاولى بنا مع قصر اعمارنا الا نصرفها الا فيما نرجو به رحب المنقلب وحسن المآب غداً . وان كان القاضي حمام بن احمد حدثني عن يحيى بن مالك عن عائذ باسناد يرفعه الى ابي الدرداء انه قال اجموا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق . ومن بعض اقوال الصالحين من السلف المرضي : من لم يحسن يتفتى لم يحسن يتقوى . وفي بعض الاثر : اريحوا النفوس فانها تصدأ كما يصدأ الحديد . والذي كلفتني فلا بد فيه من ذكر ماشاهدته حضرتي وادركته عنايتي وحدثني به الثقات من اهل زماني فاغتفر لي الكناية عن الاسماء فهي اما عورة لا نستجيز كشفها واما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً وبحسبي ان أسمي من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره اما لاشتهار لا يغني عنه الطي وترك التبيين واما ارضى من المخبر عنه بظهور خبره وقلة انكار منه لنقله وسأورد في رسالتي هذه اشعاراً قلتها فيما شاهدته فلا تنكر انت ومن رآها علي اني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر واكثر ذلك فان اخواني يجشمونني القول فيما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم وكفاني اني ذاكر لك ماعرض لي مما يشاكل ما نحوت نحوه

(١) فنن الشيء خلطه . رأيه لونه ولم يثبت على رأي واحد (٢) في الاصل فبدرت

وتاسه الي والترمت في كتابي هدا الوقوف عند حدك والاقتصار على مارأيت اوصح عندي بنقل الثقات ودعي من اخبار الاعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت الاخبار عنهم وما مذهبي ان انضي مطية سواي ولاأتحلى بحلي مستعار والله المستعمر والمستعان لارب غيره

(باب) وقسمت رسالتي هده على ثلاثين باباً منها في اصول الحب عشرة فأولها هدا الباب في علامات الحب ثم (باب فيه ذكر من احب في النوم) ثم (باب فيه ذكر من احب بالوصف) ثم (باب فيه ذكر من احب من نظرة واحدة) ثم (باب فيه ذكر من لاتصح محبته الامع المطاولة) ثم (باب التعريض بالقول) ثم (باب الاشارة بالعين) ثم (باب المراسلة) ثم (باب السفير) ومنها في اعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً وان كان الحب عرضاً والعرض لايحتمل الاعراض وصفة والصفة لاتوصف فهذا على مجاز اللغة في اقامة الصفة مقام الموصوف وعلى معنى قولنا وجودنا عرضاً اقل في الحقيقة من عرض غيره واكثر واحسن واقبح في ادراكنا لها علما انها متباينة في الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة اذ لا تقع فيها الكمية ولاالتجزي لانها لاتشغل مكاناً وهي (باب الصديق المساعد) ثم (باب الوصل) ثم (باب طي السر) ثم (باب الكشف والاذاعة) ثم (باب الطاعة) ثم (باب المخالفة) ثم (باب من احب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها) ثم (باب القنوع) ثم (باب الوفاء) ثم (باب الغدر) ثم (باب الضنى) ثم (باب الموت) ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة ابواب وهي (باب العاذل) ثم (باب الرقيب) ثم (باب الواشي) ثم (باب الهجر) ثم (باب البين) ثم (باب السلو) من هذه الابواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الابواب المتقدمة الذكر وهو (باب العاذل وضده) (باب الصديق المساعد) (باب الهجر وضده) (باب الوصل) ومنها اربعة ابواب لاضد لها من معاني الحب وهي (باب الرقيب) و (باب الواشي) ولا ضد لهما الا ارتفاعهما وحقيقة الضد ما اذا وقع ارتفع الاول وان كان المتكلمون قد اختلفوا في ذلك

ولولا خوفنا اطـالة الكلام فيا ليس من حس الكتاب لتقصيناه ﴿ وباب البين وضده تصاقب الديار ﴾ وليس التصاقب من معاني الحب التي تتكلم فيها ﴿ وباب السلو وضده الحب ﴾ اذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه ومنها بابان ختمنا بهما الرسالةوهما ﴿ باب الكلام في قبح المعصية ﴾ و ﴿ باب في فضل التعفف ﴾ ليكون خاتمة ايرادنا وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فذلك مفترض على كل مؤمن لكنا خالفنا في نسق بعض هذه الابواب هذه الرتبة المقسمة في درج هذا الباب الذي هو اول ابواب الرسالة فجعلناها على مباديها الى منتهاها واستحقاقها في التقدم والدرجات والوجود ومن اول مراتبها الى آخرها وجعلنا الضد الى جنب ضده فاختلف في المساق في ابواب يسيرة والله المستعان وهيأتها في الايراد اولها هذا الباب الذي نحن فيه وفيه صدر الرسالة وتقسيم الابواب والكلام في ماهية الحب ثم ﴿ باب علامات الحب ﴾ ثم ﴿ باب من احب بالوصف ﴾ ثم ﴿ باب من احب من نظرة واحدة ﴾ ثم ﴿ باب من لايحب الامع المطاولة ﴾ ثم ﴿ باب من احب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ﴾ ثم ﴿ باب التعريض بالقول ﴾ ثم ﴿ باب الاشارة بالعين ﴾ ثم ﴿ باب المراسلة ﴾ ثم ﴿ باب السفير ﴾ ثم ﴿ باب طي السر ﴾ ثم ﴿ باب اذاعته ﴾ ثم ﴿ باب الطاعة ﴾ ثم ﴿ باب المخالفة ﴾ ثم ﴿ باب العاذل ﴾ ثم ﴿ باب المساعد من الاخوان ﴾ ثم ﴿ باب الرقيب ﴾ ثم ﴿ باب الواشي ﴾ ثم ﴿ باب الوصل ﴾ ثم ﴿ باب الهجر ﴾ ثم ﴿ باب الوفاء ﴾ ثم ﴿ باب الغدر ﴾ ثم ﴿ باب البين ﴾ ثم ﴿ باب القنوع ﴾ ثم ﴿ باب الضنى ﴾ ثم ﴿ باب السلو ﴾ ثم ﴿ باب الموت ﴾ ثم ﴿ باب قبح المعصية ﴾ ثم ﴿ باب فضل التعفف ﴾ .

﴿ الكلام في ماهية الحب ﴾

الحب اعزك الله اوله هزل وآخره جد دقت معانيه لجلالتها عن ان توصف فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة اذ القلوب بيد الله عز وجل وقد احب من الخلفاء المهديين والائمة الراشدين كثير

حبهم بالاندلس عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء والحكم بن هشام وعبد الرحمن ابن الحكم وشغفه بطروب ام عبد الله ابنه اشهر من الشمس ومحمد بن عبد الرحمن وامره مع غزلان ام بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم والحكم المستنصر وافتتانه بصبح ام هشام المؤيد بالله رضي الله عنه وعن جميعهم وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها ومثل هذا كثير ولولا ان حقوقهم على المسلمين واجبة وانما يجب ان نذكر من اخبارهم ما فيه الحزم واحياء الدين وانما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الاخبار به عنهم لاوردت من اخبارهم في هذا الشأن غير قليل واما كبار رجالهم ودعائم دولتهم فاكثر من ان يحصوا واحدث ذلك ما شاهدناه بالامس من كلف المظفر بن عبد الملك ابن ابي عامر بواجد بنت رجل من الحاضرين حتى حمله حبها ان يتزوجها وهي التي خلف عليها بعد فناء العامريين الوزير عبد الله بن مسلمة ثم تزوجها بعد قتله رجل من رؤساء البربر ومما يشبه هذا ان ابا العيش بن ميمون القرشي الحسيني اخبرني ان نزار بن معد صاحب مصر لم ير ابنه منصور بن نزار الذي ولي الملك بعده وادعى الالاهية الا بعد مدة من مولده مساعدة لجارية كان يحبها حباً شديداً هذا ولم يكن له ذكر ولا من يرث ملكه ويحيي ذكره سواه (ومن الصالحين والفقهاء) في الدهور الماضية والازمان القديمة من قد استغني باشعارهم عن ذكرهم وقد ورد من خبر عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وشعره ما فيه الكفاية وهو احد فقهاء المدينة السبعة وقد جاء من فتيا بن عباس رضي الله عنه ما لا يحتاج معه الى غيره حين يقول هذا قتيل الهوى لا عقل ولا قود وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا واطالوا والذي اذهب اليه انه اتصال بين اجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في اصل عنصرها الرفيع لا على ما حكاه محمد ابن داود رحمه الله عن بعض اهل الفلسفة الارواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي ومجاورتها في هيئة تركيبها وقد علمنا ان سر

التمازج والتباين في المخلوقات انما هو الاتصال والانفصال والشكل دأبا يستدعي شكله والمثل الى مثله ساكن وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد والتنافر في الاضداد والموافقة في الانداد والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل وسنخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار كل ذلك معلوم بالفطرة في احوال تصرف الانسان فيسكن اليها والله عز وجل يقول (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها) فجعل علة السكون انها منه ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب الا يستحسن الانقص من الصورة ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الادنى ويعلم فضل غيره ولايجد محيداً لقلبه عنه ولو كان للموافقة في الاخلاق لما احب المرء من لايساعده ولا يوافقه فعلمنا انه شيء في ذات النفس وربما كانت المحبة لسبب من الاسباب وتلك تفنى بفناء سببها فمن ودك لامر ولى مع انقضائه وفي ذلك اقول :

ودادي لك الباقي على حسب كونه ... تناهى فلم ينقص لشيء ولم يزد
وليست له غير الارادة علة ... ولا سبب حاشاه يعلمه احد
اذا ما وجدنا الشيء علة نفسه ... فذاك وجود ليس يفنى على الابد
واما وجدناه لشيء خلافه ... فاعدامه في عدمنا ما له وجد

ومما يؤكد هذا القول انا علمنا ان المحبة ضروب فافضلها محبة المتحابين في الله عز وجل اما لاجتهاد في العمل واما لاتفاق في اصل النحلة والمذاهب واما لفضل علم يمنحه الانسان ومحبة القرابة ومحبة الالفة والاشتراك في المطالب ومحبة التصاحب والمعرفة ومحبة لبر يضعها المرء عند اخيه ومحبة لطمع في جاه المحبوب ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ومحبة لبلوغ اللذة وقضاء الوطر ومحبة العشق التي لاعلة لها الا ماذكرنا من اتصال النفوس وكل هذه الاجناس منقضية مع انقضاء عللها وزائدة بزيادتها وناقصة بنقصانها متأكدة

مدنوها فاترة بعدها حاشى محبة العشق الصحيح المكن من النفس فهي التي لافناء لها الا بالموت وانك لتجد الانسان السالي برغمه وذا السن المتناهية اذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين ولا يعرض في شيء من هذه الاجناس المذكورة من شغل البال والخبل والوسواس وتبدل الغرائز المركبة واستحالة السجايا المطبوعة والتحول والزفير وسائر دلائل الشجا مايعرض في العشق فصح بذلك انه استحسان روحاني وامتزاج نفساني فان قال قائل لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية اذ الجزءان مشتركان في الاتصال وحظهما واحد فالجواب عن ذلك ان نقول هذه لعمري معارضة صحيحة ولكن نفس الذي لايحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الاعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية فلم تحس بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة طالبة له قاصدة اليه باحثة عنه مشتهية للاقاة جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس والحديد قوة جوهر المغنطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكمها ولا من تصفيتها ان تقصد الى الحديد على انه من شكلها وعنصرها كما ان قوة الحديد لشدتها قصدت الى شكلها وانجذبت نحوه اذ الحركة ابداً انما تكون من الاقوى وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس تطلب مايشبهها وتنقطع اليه وتنهض نحوه بالطبع والضرورة بالاختيار والتعمد وانت متى امسكت الحديد بيدك لم ينجذب اذ لم يبلغ من قوته ايضاً مغالبة الممسك له مما هو اقوى منه ومتى كثرت اجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض واكتفت باشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها فمتى عظم جرم المغنطيس ووازت قواه جميع قوى جرم الحديد عاد الى طبعها المعهود وكالنار في الحجر لايبرز على قوة النار في الاتصال والاستدعاء لاجزائها حيث كانت الا بعد القدح ومجاورة الجرمين بضغطهما

واصطكا كهما والا فهي كامنة في حجرها لاتبدو ولا تظهر ومن الدليل على هذا ايضاً انك لاتجد اثنين يتحابان الا وبينهما مشاكلة واتفاق الصفات الطبيعية لابد من هذا وان قل وكلما كثرت الاشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة فانظر هذا تراه عياناً وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده (الارواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) وقول مروي عن احد الصالحين (ارواح المؤمنين تتعارف) ولهذا ما اغتم بقراط حين وصف له رجل من اهل النقصان يحبه فقيل له في ذلك فقال ما احبني الا وقد وافقته في بعض اخلاقه وذكر افلاطون ان بعض الملوك سجنه ظلماً فلم يزل يحتج عن نفسه حتى اظهر براءته وعلم الملك انه له ظالم فقال له وزيره الذي كان يتولى ايصال كلامه اليه ايها الملك قد استبان لك انه بريء فمالك وله فقال الملك لعمري مالي اليه سبيل غير اني احد لنفسي استثقالا لا ادري ماهو فأدى ذلك الى افلاطون قال فاحتجت ان افتش في نفسي واخلاقي شيئاً اقابل به نفسه واخلاقه مما يشبهها فنظرت في اخلاقه فاذا هو محب للعدل كاره للظلم فميزت هذا الطبع في فما هو الا ان حركت هذه الموافقة وقابلت نفسه بهذا الطبع الذي بنفسه فأمر باطلاقي وقال لوزيره قد انحل كل ما اجد في نفسي له .

واما العلة التي توقع الحب ابداً في اكثر الامر على الصورة الحسنة الظاهر ان النفس حسنة تولع بكل شيء حسن وتميل الى التصاوير المتقنة فهي اذا رأت بعضها تثبتت فيه فان ميزت وراءها شيئاً من اشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية وان لم تميز وراءها شيئاً من اشكالها لم يتجاوز احبابها الصورة وذلك هو الشهوة وان للصور لتوصيلا عجيباً بين اجزاء النفوس النائية وقرأت في السفر الاول من التوراة ان النبي يعقوب عليه السلام ايام رعيه غنم لابان خاله مهرا لابنته شارطه على المشاركة في انسالها فكل بهيم ليعقوب وكل اغر للابان فكان يعقوب عليه السلام يعمد الى قضبان الشجر يسلخ نصفاً ويترك نصفاً

بحاله ثم يلقي الحبيح في الماء الدي ترده الغنم ويتعمد ارسال الطروقة في دلك الوقت فلا تلد الا نصفين نصفاً بهماً ونصفاً عزاً ودكر عن بعض القافة انه اتى بابن اسود لأبيضين فنظر الى اعلامه فرآه لهما غير شك فرغب ان يوقف على الموضع الدي اجتمعا عليه فأدخل البيت الدي كان فيه مضجعهما فرأى فيما يوازي نظر المرأة صورة اسود في الحائط فقال لأبيه من قبل هده الصورة اتيت في ابنك وكثيراً مايصرف شعراء اهل الكلام هدا المعنى في اشعارهم فيخاطبون المرئي في الظاهر خطاب المعقول الباطن وهو المستفيض في شعر النظام ابراهيم بن سيار وغيره من المتكلمين وفي دلك اقول شعراً منه :

ما علة النصر في الاعداء نعرفها	وعلة الفر منهم ان يفروا
الا براع نفوس الناس قاطبة	اليك يالؤلؤاً في الناس مكنوناً
من كنت قدامه لاينثني ابداً	فهم الى نورك النفاد يعشونا
ومن تكن خلفه فالنفس تصرفه	اليك طوعاً فهم دأباً يكرونا

وفي دلك اقول ·

امن عالم الاملاك انت ام انسي	ابن لي فقد ازرى بتمييزي العي
ارى هيئة انسية غير انه	ادا اعمل التفكير فالجرم علوي
تبارك من سوى مداهب خلقه	على انك النور الانيق الطبيعي
ولاشك عندي انك الروح ساقه	الينا مثال في النفوس اتصالي
عدمنا دليلا في حدوثك شاهداً	نقيس عليه غير انك مرئي
ولولاوقوع العين في الكون لم نقل	سوى انك العقل الرفيع الحقيقي

وكان بعض اصحابنا يسمى قصيدة لي الادراك المتوهم منها

ترى كل ضد به قائماً	فكيف تحد اختلاف المعاني
فيآيها الجسم لا دا جهات	ويا عرضاً ثابتاً غير فان
نقضت علينا وجوه الكلام	فما هو مذ لحت بالمستبان

وهذا شبيه موجود في القصة ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى ولا علة ويستثقل بعضهما بعضا بلا سبب والحب اعزك الله داء عياء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ومقام مستلذ وعلة مشتهاة لا يود سليمها البرء ولا يتمنى عليلها الافاقة يزين للمرء ما كان يأنف منه ويسهل عليه ما كان يصعب عنده حتى يحيل الطبائع المركبة والجبلة المخلوقة وسيأتي كل ذلك ملخصاً في بابه ان شاء الله (خبر) ولقد علمت فتى من بعض معارفي وقد وحل في الحب وتورط في حبائله واضر به الوجد وانصحه الدنف وما كانت نفسه تطيب بالدعاء الى الله عز وجل في كشف ما به ولا ينطلق به لسانه وما كان دعاؤه الا بالوصل والتمكن ممن يحب على عظيم بلائه وطويل همه فما الظن بسقيم ولا يريد فقد سقمه ولقد جالسته يوماً فرأيت من اكبابه وسوء حاله واطراقه ما ساءني فقلت له في بعض قولي فرج الله عنك فلقد رأيت اثر الكراهية في وجهه وفي مثله اقول من كلمة طويلة :

واستلذ بلائي فيك يا أملي ولست عنك مدى الايام انصرف
ان قيل لي تتسلى عن مودته فما جوابي الا اللام والالف

(خبر) وعلى ضد هذه الصفات خالفة لما اخبرني به عن نفسه ابو بكر محمد ابن قاسم ابن محمد القرشي المعروف بالشلشي من ولد الامام هشام بن عبد الرحمن ابن معاوية انه لم يحب احداً قط ولا اسف على الف بان منه ولا تجاوز حد الصحبة والالفة الى حد الحب والعشق مذ خلق

﴿ باب علامات الحب ﴾

وللحب علامات يقفوها الفطن ويهتدي اليها الذكي فأولها ادمان النظر والعين باب النفس الشارع وهي المنقبة عن سرائرها والمعبرة لضمائرها والمعربة عن بواطنها فترى الناظر لا يطرف ينتقل بتنقل المحبوب وينزوي بانزوائه ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس وفي ذلك اقول شعراً منه

فليس لعيني عند غيرك موقف كأنك ما يحكون من حجر البهت
أصرفها حيث انصرفت وكيف ما تقلبت كالمنعوت في النحو والنعت

ومنها الاقبال بالحديث بما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد ذلك وان التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه والانصات لحديثه اذا حدث واستغراب كل ما يأتي به ولو انه عين المحال وخرق العادات وتصديقه وان كذب وموافقته وان ظلم والشهادة له وان جار واتباعه كيف سلك واي وجه من وجوه القول تناول ومنها الاسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه والتعمد للقعود بقربه والدنو منه واطراح الاشغال الموجبة للزوال عنه والاستهانة بكل خطب جليل داع الى مفارقته والتباطيء في الشيء عن القيام عنه وفي ذلك اقول شعراً :

واذا قمت عنك لم امش الا مشي عان يقاد نحو الفناء
في مجيئي اليك احتث كالبد ر اذا كان قاطعاً للسماء
وقيامي ان قمت كالانجم العا لية الثابتات في الابطاء

ومنها بهت يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه او عند سماع اسمه فجأة وفي ذلك اقول قطعة منها

اذا ما رأت عيناي لابس حمرة تقطع قلبي حسرة وتفطرا
غدا لدماء الناس باللحظ سافكا وضرج منها ثوبه فتعصفرا

ومنها ان يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك كأنه هو الموهوب له والمسعى في حظه كل ذلك ليبدي محاسنه ويرغب في نفسه فكم بخيل جاد وقطوب تطلق وجبان شجع وغليظ الطبع تطرب وجاهل تأدب وتفل تزين وفقير تجمل وذي سن تفتى وناسك فتك ومصون تهتك وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه وتوقد شعله واستطارة لهبه فاما اذا تمكن واستحكم فحينئذ ترى الحديث سراراً والاعراض عن

كل ما حصر الا عن المحبوب حهاراً ولي ابيات حمعت فيها كثيراً من هده العلامات منها :

اهوى الحديث اذا ما كان يدكر لي فيه ويعبق لي عن عسر أرح
ان قال لم استمع ممن يحالسي الى سوى لفطة المستطرف الملح
ولو يكون امير المؤمنين معي ما كنت من احله عنه بمعرح
فان اقم عنه مصطراً فاني لا ارال ملتفتاً والمشي مشي وحى
عيناي فيه وجسمي عنه مرتحل مثل التفات الغريق البر في اللحح
اغص بالماء ان اذكر تاعده كمن تشاءب وسط النقع والوهج
وان تقل ممكن قصد السماء اقل نعم واني لادري موضع الدرج

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل دي نصر الانبساط الكثير الرائد والتصايق في المكان الواسع والمحادبة على الشيء يأخده احدهما وكثرة الغمز الخفي والميل بالاتكاء والتعمد لمس اليد عند المحادثة ولمس ما أمكن من الاعضاء الظاهرة وشرب فضلة ما ابقى المحبوب في الاناء وتحري المكان الدي قابل فيه ومنها علامات متضادة وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة والاسباب المحركة والخواطر المهيحة والاضداد انداد والاشياء اذا افرطت في غايات تضادها ووقفت في انتهاء حدود اختلافها تشابهت قدرة من الله عز وجل تضل فيها الاوهام فهذا الثلج اذا ادمن حبسه في اليد فعل فعل النار ونجد الفرح اذا افرط قتل والغم اذا افرط قتل والضحك اذا كثر واشتد سال الدمع من العينين وهذا في العالم كثير فنجد المحبين اذا تكافيا في المحبة وتأكدت بينهما تأكداً شديداً اكثر بهما حدهما بغير معنى وتضادهما في القول تعمداً وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الامور وتتبع كل منهما لفطة تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها كل هده تجربة ليبدو مايعتقده كل واحد منهما في صاحبه والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومخارجة التشاجر

سرعة الرضى فانك بينا ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا تقدره
يصلح عند الساكن النفس السالم من الاحقاد في الزمن الطويل ولا ينجبر عند
الحقود ابداً فلا تلبث ان تراهما قد عادا الى اجمل الصحبة واهدرت المعاتبة
وسقط الخلاف وانصرفا في ذلك الحين بعينه الى المضاحكة والمداعبة هكذا في
الوقت الواحد مراراً واذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجك شك ولا يدخلك
ريب البتة ولا تتمار في ان بينهما سراً من الحب دفينا واقطع عليه قطع من
لا يصرفه عنه صارف ودونكها تجربة صحيحة وخبرة صادقة هذا لا يكون الا عن
تكافؤ في المودة وائتلاف صحيح وقد رأيته كثيراً ومن اعلامه انك تجد المحب
يستدعي سماع اسم من يحب ويستلذ الكلام في اخباره ويجعلها هجيراه ولا
يرتاح لشيء ارتياحه لها ولا ينهنهه عن ذلك تخوف ان يفطن السامع ويفهم
الحاضر وحبك الشيء يعمي ويصم فلو امكن المحب ان لا يكون حديث في مكان
يكون فيه الا ذكر من يحبه لما تعداه ويعرض للصادق المودة ان يبتدئ في
الطعام وهو له مشته فما هو الا وقت ما يهتاج له من ذكر من يحب صار الطعام
غصة في الحلق وشجى في المريء وهكذا في الماء وفي الحديث فانه يفاتحه
مبتهجاً فتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يحب فتستبين الحوالة في
منطقه والتقصير في حديثه وآية ذلك الوجوم والاطراق وشدة الانغلاق فبينا
هو طلق الوجه خفيف الحركات صار منطبقاً متثاقلا حائر النفس جامد الحركة
يبرم من الكلمة ويضجر من السؤال ومن علاماته حب الوحدة والانس بالانفراد
ونحول الجسم دون حد يكون فيه ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشي
دليل لا يكذب ومخبر لا يخون عن كلمة في النفس كامنة والسهر من اعراض
المحبين وقد اكثر الشعراء في وصفه وحكوا انهم رعاة الكواكب ووصفوا طول
الليل وفي ذلك اقول واذكر كتمان السر وانه يتوسم بالعلامات

تعلت السحائب من شؤوني … فعمت بالحيا السكك المتون

وهذا الليل فيك غدا رفيقي   بذلك ام على سهري معيني

فان لم ينقص الاظلام ...   الا ما اطبقت يوماً جفوني

فليس الى النهـار لنا سبيل   وسهد رائد في كل حين

كأن نجومه والغيم يخفي   ساها عن ملاحظة العيون

ضميري في ودادك يامنائي   فليس يبين الا بالظنون

وفي مثل ذلك قطعة منها :

ارعى النجوم كأنني كلفت ان   ارعى جميع ثبوتهـا والخنس

فكأنها والليل نيران الجوى   قد اضرمت في فكرتي من حندس

وكأنني امسيت حارس روضة   خضراء وشع نبتهـا بالنرجس

لو عاش بطليموس ايقن انني   اقوى الورى في رصد جري الكنس

والشيء قد يذكر لما يوجبه وقع لي في هذه الابيات تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد وهو البيت الذي اوله فكأنها والليل وهذا مستغرب في الشعر ولي ما هو اكمل منه وهو تشبيه ثلاثة اشياء في بيت واحد وتشبيه اربعة اشياء في بيت واحد وكلاهما في هذه القطعة التي اوردها وهي :

مشوق معنى ما ينـام مسهد   مخمر التجني مايزال يعربد

ففي ساعة يبدي اليك تحاشياً   (و) يعدو ويستحلي ويدني ويبعد

كأن الهوى والعتب والهجر والرضى   قران واضداد ونحس واسعـد

رثى لغرامي بعد طول تمنع   واصبحت محسوداً وقد كنت احسد

سمعنا على نور من الروض زاهر   سقته الغوادي فهو يثني ويحمد

كأن الحيا والمزن والروض عاطراً   دموع واجفان وخد مورد

ولا ينكرن على منكر قولي قران فاهل المعرفة بالكواكب يسمون التقاء كوكبين في درجة واحدة قراناً ولي ايضاً ماهو اتم من هذا وهو تشبيه خمسة اشياء في بيت واحد في هذه القطعة وهي :

حلوت بها والراح ثالثة لهـا وجنح ظلام الليل قد مد واتلج
فتاة عدمت العيش الا بقربها فهل في ابتغاء العيش ويحك من حرج
كأني وهي والـكاس والخمر والدجى ثرى وحيا والدر والتبر والسبج

فهذا امر لامزيد فيه ولا يقدر احد على اكثر منه اذ لايحتمل العروض ولابنية الاسماء اكثر من ذلك ويعرض للمحبين القلق عند احد امرين احدهما عند رجائه لقاء من يحب فيعرض عند ذلك حائل

(خبر) واني لاعلم بعض من كان محبوبه يعده الزيارة فما كنت اراه الا جائياً وذاهباً لايقر به القرار ولايثبت في مكان واحد مقبلا مدبراً قد استخفه السرور بعد ركانة واشاطه بعد رزانة ولي في معنى انتظار الزيارة

اقمت الى ان جاءني الليل راجياً لقــاءك ياسؤلي ويا غاية الامل
فأيأسني الاظلام عنك ولم اكن لاَيأس يوماً ان بدى الليل يتصل
وعندي دليل ليس يكذب خبره بامثاله في مشكل الامر يستدل
لانك لو زرت الزيارة لم يكن ظلام ودام النور فينا ولم يزل

والثاني عند حادث يحدث بينهما من عتاب لاتدرى حقيقته الا بالوصف فعند ذلك يشتد القلق حتى توقع على الجلية فاما ان يذهب تحمله ان رجا العفو و(اما) ان يصير القلق حزناً واسفاً ان تخوف الهجر ويعرض للمحب الاستكانة لجفاء المحبوب عليه وسيأتي مفسراً في بابه ان شاء الله تعالى . ومن اعراضه الجزع الشديد والحمرة المقطعة تغلب عندما يرى من اعراض محبوبه عنه ونفاره منه وآية ذلك الزفير وقـلة الحركة والتـأوه وتنفس الصعداء وفي ذلك اقول شعراً منه :

وحبل الصبر مبتوت ودموع العين سارحه

ومن علاماته انك ترى المحب يحب اهل محبوبه وقرابته وخاصته حتى يكونوا احظى لديه من اهله ونفسه ومن جميع خاصته والبكاء من علامات الحب ولكن

يتفاضلون فيه فمنهم غزير الدمع هامل الشؤون تجيبه عينه وتحضره عبرته اذا شاء ومنهم جمود العين عديم الدمع وانا منهم وكان الاصل في ذلك ادماني اكل الكندر لخفقان القلب وكان عرض لي في الصبى فاني لأصاب بالمصيبة الفادحة فأجد قلبي يتفطر ويتقطع واحس في قلبي غصة امر من العلقم تحول بيني وبين توفية الكلام حق مخارجه وتكاد تشرقني بالنفس احيانا ولاتجيب عيني البتة الافي الندرة بالشيء اليسير من الدمع

(خبر) ولقد اذكرني هذا الفصل يوما ودعت انا وابو بكر محمد ابن اسحق صاحبي ابا عامر محمد ابن عامر صديقنا رحمه الله في سفرته الى المشرق التي لم نره بعد فجعل ابو بكر يبكي عند وداعه وينشد متمثلا بهذا البيت:

الا ان عيناً لم تجد يوم واسط عليك بباقي دمعها لجمود

وهو في رثاء يزيد بن عمر بن هبيرة رحمه الله ونحن وقوف على ساحل البحر بمالقة وجعلت انا اكثر التفجع والاسف ولاتساعدني عيني فقلت مجيباً لابي بكر

وان امرأ لم يفن حسن اصطباره عليك وقد فارقته لجليد

وفي المذهب الذي عليه الناس اقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحلم اولها

دليل الاسى نار على القلب تلفح ودمع على الخدين يحمي ويسفح

اذا كتم المشغوف سر ضلوعه فان دموع العين تبدي وتفضح

اذا ماجفون العين سالت شؤونها ففي القلب داء للغرام مبرح

ويعرض في الحب سوء الظن واتهام كل كلمة من احدهما وتوجيهها الى غير وجهها وهذا اصل العتاب بين المحبين واني لاعلم من كان احسن الناس ظناً واوسعهم نفساً واكثرهم صبراً واشدهم احتمالا وارحبهم صدراً ثم لايحتمل ممن يحب شيئاً ولايقع له معه ايسر مخالفة حتى يبدي من التعديد فنوناً ومن سوء الظن وجوهاً وفي ذلك اقول شعراً منه :

أسيء ظني بكل محتقر تأتي به والحقير من حقر

كي لايرى اصل هجرة وقلى   قال'ر في بدء امرها شررا
واصل عظم الامور اهونها   ومن صغير النوى ترى شجرا

وترى المحب اذا لم يبق سقاء طوية محبوبه له كثير التحفظ مما لم يكن يتحفظ قبل ذلك متقفاً لكلامه مريباً لحركاته ومرامي طرفه ولا سيما ان دهى بمتجس وبلى بمعربد . ومن آياته . مراعاة المحب لمحبوبه وحفظه لكل ما يقع منه وبحثه عن اخباره حتى لايسقط عنه دقيقة ولاجليلة وتتبعه لحركاته ولعمري لقد ترى البليد يصير في هذه الحالة ذكياً والغافل فطناً

(خبر) ولقد كنت يوماً بالمرية قاعداً في دكان اسمعيل بن يونس الطبيب الاسرائيلي وكان بصيراً بالفراسة محسناً لها وكنا في لمة فقال له مجاهد ابن الحصين القيسي ماتقول في هذا واشار الى رجل منتبذ عنا ناحية اسمه حاتم ويكنى ابا البقاء فنظر اليه ساعة يسيرة ثم قال هو رجل عاشق فقال له صدقت فمن اين قلت هذا ؟ قال : لبهت مفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته فعلمت انه عاشق وليس بمريب

﴿ باب من احب في النوم ﴾

ولا بد لكل حب من سبب يكون له اصلًا وانا مبتديء بابعد مايمكن ان يكون من اسبابه ليجري الكلام على نسق وان يبتدأ ابداً بالسهل والأهون فمن اسبابه شيء لولا اني شاهدته لم اذكره لغرابته

(خبر) وذلك اني دخلت يوماً على ابي السري عمار بن زياد صاحبنا مولى المؤيد فوجدته مفكراً مهتماً فسألته عما به فتمنع ساعة ثم قال لي اعجوبة ماسمعت قط قلت وما ذاك قال رأيت في نومي الليلة جارية فاستيقظت وقد ذهب قلبي فيها وهمت بها واني لفي اصعب حال من حبها ولقد بقي اياماً كثيرة يزيد على الشهر مغموماً مهموماً لايهنئه شيء وجداً الى ان عذلته وقلت له

من الخطأ العظيم ان تشغل نفسك بغير حقيقة وتعلق وهمك بمعدوم
وهل تعلم من هي قال لا والله قلت انك لقليل الرأي مصاب البصيرة اذ تحب من لم تره قط ولا خلق ولا هو في الدنيا ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندي اعذر فما زلت به حتى سلا وما كاد وهذا عندي من حديث النفس واضغاثها وداخل في باب التمني وتخيل الفكر وفي ذلك اقول شعراً منه :

يا ليت شعري من كانت وكيف سرت	أطلعة الشمس كانت ام هي القمر
اظنه العقل ابداه تدبره	او صورة الروح ابدتها الى الفكر
او صورة مثلت في النفس من املي	فقد تخيل في ادراكها البصر
او لم يكن كل هذا فهي حادثة	اتى بها سبباً في حتفي القدر

﴿ باب من احب بالوصف ﴾

ومن غريب اصول العشق ان تقع المحبة بالوصف دون المعاينة وهذا امر يترقى منه الى جميع الحب فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد والسهر على غير الابصار فان للحكايات ونعت المحاسن ووصف الاخبار تأثيراً في النفس ظاهراً وان تسمع نغمتها من وراء جدار فيكون سبباً للحب واشتغال البال وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ولكنه عندي بنيان هار على غير أس وذلك ان الذي افرغ ذهنه في هوى من لم ير لابد له اذ يخلو بفكره ان يمثل لنفسه صورة يتوهمها وعيناً يقيمها نصب ضميره لايتمثل في هاجسه غيرها قد مال بوهمه نحوها فان وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الامر او يبطل بالكلية وكلا الوجهين قد عرض وعرف واكثر ما يقع هذا في ربات القصور المحجوبات من اهل البيوتات مع اقاربهن من الرجال وحب النساء في هذا اثبت من

حب الرجال لصفاتهن وسرعة اجابة طباعهن الى هذا الشأن وتمكنه منهن ؛
وفي دلك اقول شعراً منه :

ويا من لامني في حب من لم يره طرفي
لقد افرطت في وصفك لي في الحب بالضعف
فقل هل تعرف الجنة يوماً بسوى الوصف

واقول شعراً في استحسان النغمة دون وقوع العين على العيان منه :

قد حل جيش الغرام سمعي وهو على مقلتي يبدو

واقول ايضاً في مخالفة الحقيقة لظن المحبوب عند وقوع الرؤية :

وصفوك لي حتى اذا ابصرت ما وصفوا علمت بانه هذيان
فالطبل جلد فارغ وطنينه يرتاع منه ويفرق الانسان

وفي ضد هدا اقول :

لقد وصفوك لي حتى التقينا فصار الظن حقاً في العيان
فاوصاف الجنان مقصرات على التحقيق عن قدر الجنان

وان هذه الاحوال لتحدث بين الاصدقاء والاخوان وعني احدث (خبر) انه كان بيني وبين رجل من الاشراف ود وكيد وخطاب كثير وما تراءينا قط ثم منح الله لي لقاءه فما مرت الا ايام قلائل حتى وقعت لنا منافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة الى الآن فقلت في ذلك قطعة منها :

ابدلت اشخاصنا كرهاً وفرط قلى كما الصحائف قد يبدلن بالنسخ

ووقع لي ضد هدا مع ابي عامر ابن ابي عامر رحمة الله عليه فاني كنت له على كراهة صحيحة وهو لي كدلك ولم يرني ولا رأيته وكان اصل ذلك تنقيلاً يحمل اليه عني والي عنه يؤكده انحراف بين ابوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ووجاهة الدنيا ثم وفق الله الاجتماع به فصار لي اود الناس وصرت له كدلك الى ان حال الموت بيننا وفي دلك اقول قطعة منها

اح لي كسبثيه القساء واوجدني فيه علقاً شريفاً
وقد كنت اكرمه الحوار وماكنت ارعه لي اليفاً
وكان البعيض فصار الحبيب وكان الثقيل فصار الخفيفا
وقد كنت ادمن عنه الوجيف فصرت اديم اليه الوجيفا

واما ابو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبري فكان لي صديقاً مدة على غير رؤية ثم التقينا فتأكدت المودة واتصلت وتمادت الى الآن ٠

﴿ باب من احب من نظرة واحدة ﴾

وكثيراً ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة وهو ينقسم قسمين فالقسم الواحد مخالف للذي قبل هذا وهو ان يعشق المرء صورة لايعلم من هي ولايدري لها اسماً ولا مستقراً وقد عرض هذا لغير واحد

(خبر) حدثني صاحبنا ابو بكر محمد بن احمد بن اسحق عن ثقة اخبره سقط عني اسمه وأظنه القاضي بن الحذاء ان يوسف بن هرون الشاعر المعروف بالرمادي كان مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة وهذا الموضع كان مجتمع النسآء فرأى جارية اخذت بمجامع قلبه وتخلل حبها جميع اعضائه فانصرف عن طريق الجامع وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة فجازتها الى الموضع المعروف بالربض فلما صارت بين رياض بني مروان رحمهم الله المبنية على قبورهم في مقبرة الربض خلف النهر نظرت منه منفرداً عن الناس لا همة له غيرها فانصرفت اليه فقالت له مالك تمشي ورائي فاخبرها بعظيم بليته بها فقالت له دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي فلا مطمع لك في البتة ولا الى ما ترغبه سبيل فقال اني اقنع بالنظر فقالت ذلك مباح لك فقال لها يا سيدتي أحرة ام مملوكة قالت مملوكة فقال لها ما اسمك قالت خلوة قال ولمن انت فقالت له علمك والله بما في السماء السابعة اقرب اليك مما سألت عنه فدع المحال

فقال لها ياسيدتي واين اراك بعد هذا قالت حيث رأيتني اليوم في مثل تلك الساعة من كل جمعة فقالت له إما تنهض انت وإما أنهض انا فقال لها انهضي في حفظ الله فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لانهـا كانت تلتفت نحوه لترى اسايرها ام لا ولما تجاوزت باب القنطرة اتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة قال ابو عمر وهو يوسف بن هرون فوالله لقد لازمت باب العطـارين والربض من ذلك الوقت الى الآن فما وقعت لها على خبر ولا ادري أسمـاء لحستها أم أرض بلعتها وان في قلبي منها لأحر من الجمر وهي خلوة التي يتغزل بها في اشعاره ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها الى سرقسطة في قصة طويلة ومثل ذلك كثير وفي ذلك اقول قطعة منها :

عيني جنت في فؤادي لوعة الفكر ··· فأرسل الدمع مقتصاً من النظر
فكيف تبصر فعل الدمع منتصفاً ··· منها باغراقها في دمعهـا الدرر
لم القها قبـل إبصاري فاعرفها ··· وآخر العهد منها ساعة النظر

(والقسم الثاني) مخالف للباب الذي يأتي بعد هذا الباب ان شاء الله وهو ان يعلق المرء من نظرة واحدة جارية معروفة الاسم والمكان والمنشأ ولكن التفاضل يقع في هذا في سرعة الفناء وابطائه فمن احب من نظرة واحدة واسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليـل على قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو وشاهد الظرافة والملل وهكذا في جميع الاشياء اسرعها نمواً اسرعها فنـاء وابطؤها حدوثاً ابطؤها نفاداً

(خبر) اني لأعلم فتياً من ابناء الكتاب ورأته امرأة سرية النشأة عالية المنصب غليظة الحجاب وهو مجتاز ورأته في موضع تطلع منه كان في منزلهـا فعلقته وعلقها وتهاديا المراسلة زماناً على ارق من حد السيف ولولا اني لم اقصد في رسالتي هذه كشف الحيل وذكر المكائد لاوردت مما صح عندي اشياء تحير اللبيب وتدهش العاقل اسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمنه وكفانا

(باب من لايحب الا مع المطاولة)

ومن الناس من لاتصح محبته الا بعد طول المخافتة وكثير المشاهدة ومتادي الأُنس وهذا الذي يوشك ان يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مر الليالي فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً وهذا مذهبي وقد جاء في الاثر (ان الله عز وجل قال للروح حين امره ان يدخل جسد آدم وهو فخار فهاب وجزع أدخل كرهاً واخرج كرهاً) حدثناه عن شيوخنا ولقد رأيت من اهل هذه الصفة من ان احس من نفسه بابتداء هوى او توجس من استحسانه ميلاً الى بعض الصور استعمل الهجر وترك الالمام لئلا يزيد ماىجد فيخرج الأمر عن يده ويحال بين العير والنزوان وهذا يدل على لصوق الحب با كاد اهل هذه الصفة وانه اذا تمكن منهم لم يحل ابداً وفي ذلك اقول قطعة منها :

سأبعد عن دواعي الحب أني   رأيت الحزم من صفة الرشيد
رأيت الحب اوله التصدي   فيك في اراهير الخدود
فبينا انت مغتبط مخلى   اذا قد صرت في حلق القيود
كمغتر بضحضاح قريب   فزل فغاب في غمر المدود

واني لأُطيل العجب من كل من يدعي انه يحب من نظرة واحدة ولاأكاد أصدقه ولاأجعل حبه الا ضرباً من الشهوة واما ان يكون في ظني متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب فما اقدر ذلك وما لصق باحشائي حب قط الا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهراً وأخذي معه في كل جد وهزل وكذلك انا في السلو والتوق فما نسيت وداً لي قط وان حنيني الى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء وقد استراح من لم تكن هذه صفته وما مللت شيئاً قط بعد معرفتي به ولااسرعت الى الانس بشيء قط اول لقائي له وما رغبت الاستبدال الى سبب من اسبابي مذ كنت لا اقول في الآلاف

والاخوان وحدهم لكن في كل مايستعمل الانسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك وما اتسعت معيشتي ولا فارقني الاطراق والاصلاق مذ ذقت طعم فراق الاحبة وانه لشجى يعتادني وولوع هم مايتهنك يطرقني ولقد نغص تذكري مامضى كل عيش استأنفه وأني لقتيل الهموم في عداد الاحياء ودفين الاسى بين اهل الدنيا والله المحمود على كل حال لا اله الا هو . وفي ذلك اقول شعراً منه :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة ولا وريت حين ارتياد زنادها
ولكن على مهل سرت وتولدت طول امتزاج فاستقر عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاصها ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا انا نرى كل نشأة تتم سريعاً عن قريب نفادها
ولكنني ارض عزاز صليبة منيع الى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها لديها عروقها فليست تبالي ان يجود عهادها

ولا يظن ظان ولا يتوهم متوهم ان كل هذا مخالف لقولي المسطر في صدر الرسالة ان الحب اتصال بين النفوس في اصل عالمها العلوي بل هو مؤكد له فقد علمنا ان النفس في هذا العالم الادنى قد غمرتها الحجب ولحقتها الاعراض واحاطت بها الطبائع الارضية الكونية فسترت كثيراً من صفاتها وان كانت لم تحله لكن حالت دونه فلا يرجى الاتصال على الحقيقة الا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له وبعد ايصال المعرفة اليها بما يشاكلها ويوافقها ومقابلة الطبائع التي خفيت مما يشابهها من طبائع المحبوب فحينئذ يتصل اتصالا صحيحاً بلا مانع . واما مايقع من اول وهلة ببعض اعراض الاستحسان الجسدي واستطراف البصر الذي لايجاوز الالوان وهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة فاذا فضلت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفصل اتصال نفساني تشترك فيه الطبائع مع النفس يسمى عشقاً ومن هذا دخل الغلط على من يزعم انه يحب اثنين ويعشق

شخصين متغايرين فاما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آنفاً ·وهي على المجاز تسمى محبة لاعلى التحقيق واما نفس المحب فما في الميل به فضل يصرفه من اسباب دينه ودنياه فكيف بالاشتغال بحب ثان وفي ذلك اقول :

كذب المدعي هوى اثنين حتما　　مثل ما في الاصول اكذب ماني
ليس في القلب موضع لحبيبـ　　ـن ولا احدث الامور بثاني
فكما العقل واحد ليس يدري　　خالقاً غير واحد رحمان
فكذا القلب واحد ليس يهوى　　غير فرد مباعد اومدان
هو في شرعة المودة ذو شك　　بعيد من صحة الايمان
وكذا الدين واحد مستقيم　　وكفور من عنده دينان

واني لأعرف فتى من اهل الجدة والحسب والأدب كان يبتاع الجارية وهي سالمة الصدر من حبه واكثر من ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه وقطوب دائم كان لايفارقه ولاسيما مع النساء فكان لايلبث الا يسيراً ربما يصل اليها بالجماع ويعود ذلك الكره حباً مفرطاً وكلفاً زائداً واستهتاراً مكشوفاً وتحول الضجر لصحبته ضجراً لفراقه صحبته هذا الامر في عدة منهن فقال بعض اخواني فسألته عن ذلك فتبسم نحوي وقال اذاً والله اخبرك انا ابطأ الناس انزالا تقضي المرأة شهوتها وربما ثنت وارالي وشهوتي لم يقضيا بعد وما فترت بعدها قط واني لأبقى بحسبي بعد انقضائها الحين الصالح ومالاقى صدري صدر امرأة قط عند الخلوة الا عند تعمدي المعانقة وبحسب ارتفاع صدري يكون مؤخري فمثل هذا وشبهه اذا وقع وافق اخلاق النفس وولد المحبة اذ الاعضاء الحساسة مسالك الى النفوس ومؤديات نحوها (١)

---

(١) خطر لنا حذف باقي هذا الكتاب مما يماثل هذا بعد انا لم نبح لأنفسنا إسقاط ما ارتضاه ابن حزم لكتابه وما نحن باورع ولا اتقى ولا احفظ لحرمة لاخلاق منه .

﴿ باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها ﴾

واعلم اعزك الله ان للحب حكماً على النفوس ماضياً وسلطاناً قاضياً وامراً لايخالف وحداً لايعصى وملكاً لايتعدى وطاعة لاتصرف ونفاذاً لايرد وانه ينقض المرر ويحل المبرم ويحلل الجامد ويخل الثابت ويحل الشغاف ويحل الممنوع ولقد شاهدت كثيراً من الناس لايتهمون في تمييزهم ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم ولا اختلال بحسن اختيارهم ولاتقصير في حدسهم قد وصفوا احباباً لهم في بعض صفاتهم ماليس بمستحسن عند الناس ولايرضى في الجمال فصارت هجيراهم وعرضة لاهوائهم ومنتهى استحسانهم ثم مضى اولئك اما بسلو او بين او هجر او بعض عوارض الحب وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولابان عنهم تفضيلها على ما هو افضل منها في الخليقة ولامالوا الى سواها بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم الى ان فارقوا الدنيا وانقضت اعمارهم حنيناً منهم الى من فقدوه والفة لمن صحبوه وما اقول ان ذلك كان تصنعاً لكن طبعاً حقيقياً واختياراً لاداخلة فيه ولايرون سواه ولا يقولون في طي عقدهم بغيره واني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص فما استحسن اغيد ولا غيداء بعد ذلك واعرف من كان اول علاقته بجارية مائلة الى القصر فما احب طويلة بعد هذا واعرف ايضاً من هوى جارية في فمها فوه لطيف فلقد كان يتقذر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة وما اصف من متوسطي الحظوظ في العلم والادب لكن عن اوفر الناس قسطاً في الادراك واحقهم باسم الفهم والدراية . وعني اخبرك اني احببت في صباي جارية لي شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو انه على الشمس او على صورة الحسن نفسه واني لاجد هذا في اصل تركيبي من ذلك الوقت لاتؤاتيني نفسي على سواه ولاتحب غيره البتة وهذا العارض بعينه

عرض لأبي رضي الله عنه وعلى ذلك جرى الى ان وافاه اجله واما جماعة
خلفاء بني مروان رحمهم الله ولاسيا ولد الناصر منهم فكلهم مجبولون على تفضيل
الشقرة لايختلف في ذلك منهم مختلف وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن
دولة الناصر الى الآن فما منهم الا اشقر نزاعاً الى امهاتهم حتى قد صار ذلك
فيهم خلقة حاشى سليمان الظافر رحمه الله فاني رأيته اسود اللمة واللحية واما
الناصر والحكم المستنصر رضي الله عنهما فحدثني الوزير ابي رحمه الله وغيره
انهما كانا اشقرين اشهلين وكذلك هشام المؤيد ومحمد المهدي وعبد الرحمن
المرتضى رحمهم الله فاني قد رأيتهم مراراً ودخلت عليهم فرأيتهم شقراً شهلاً
وهكذا اولادهم واخوتهم وجميع اقاربهم فلا ادري أذلك استحسان مركب
في جميعهم ام لرواية كانت عند اسلافهم في ذلك فجروا عليها وهذا ظاهر في
شعر عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن امير المؤمنين الناصر
وهو المعروف بالطليق وكان اشعر اهل الاندلس في زمانهم واكثر تغزله فبالشقر
وقد رأيته وجالسته وليس العجب فيمن احب قبيحاً ثم لم يصحبه ذلك في
سواه فقد وقع من ذلك ولا فيمن طبع مذ كان على تفضيل الادنى ولكن
ومن كان ينظر بعين الحقيقة ثم غلب عليه هوى عارض بعد طول بقائه في
الجماعة فاحاله عما عهدته نفسه حوالة صارت له طبعاً وذهب طبعه الاول وهو
يعرف فضل ما كان عليه اولا فاذا رجع الى نفسه وجدها تأبى الا الادنى
فاعجب لهذا التغلب الشديد والتسليط العظيم وهو اصدق المحبة حقاً لامن يتحلى
بشيم قوم ليس منهم ويدعي غريزة لاتقلده فيزعم انه يتخير من يحب اما لو
شغل الحب بصيرته واجتاح فكرته واجتحف تمييزه لحال بينه وبين التخير
والارتياد وفي ذلك اقول شعراً منه .

منهم فتى كان في محبوبه وقص   كأنما العيد في عينيه حسان
وكان منبسطاً في فضل خيرته   محبة حقها في القول تبيان

ان المها وبها الامثال سائرة   لاينكر الحسن فيه الدهر انسان
وقص فليس بها عنقاء واحدة   وهل تران طول الجيد سران
وآخر كان في محبوبه فوه   يقول حسبي في الافواه غزلان
وثالث كان في محبوبه قصر   يقول ان ذوات الطول غيلان

واقول ايضاً :

يعيبونها عندي بشقرة شعرها   فقلت لهم هذا الذي زانها عندي
يعيبون لون النور والتبر ضلة   لرأي جهول في الغواية ممتد
وهل عاب لون النرجس الغض عائب   ولون النجوم الزاهرات على البعد
وابعد خلق الله من كل حكمة   مفضل جرم فاحم اللون مسود
به وصفت الوان اهل جهنم   ولبسة باك مثكل الاهل محتد
ومذ لاحت الرايات سوداً تيقنت   نفوس الورى ان لاسبيل الى الرشد

﴿ باب التعريض بالقول ﴾

ولا بد لكل مطلوب من مدخل اليه وسبب يتوصل به نحوه فلم ينفرد بالاختراع دون واسطة الا العليم الاول جل ثناؤه فاول مايستعمل طلاب الوصل واهل المحبة في كشف ما يجدونه الى احبتهم التعريض بالقول اما بانشاد شعر او بارسال مثل او تعمية بيت او طرح لغز او تسليط كلام والناس يختلفون في ذلك على قدر ادراكهم وعلى حسب مايرونه من احبتهم من نفار او انس او فطنة او بلادة واني لاعرف من ابتدأ كشف محبته الى من كان يحب بابيات قالها فهذا وشبهه يبتدىء به الطالب للمودة فان رأى انساً وتسهيلاً زاد وان عاين شيئاً من هذه الامور في حين انشاده لشيء مما ذكرناه او ايراده لبعض المعاني التي حددنا وانتظاره الجواب اما بلفظ او بهيئة الوجه والحركات لموقف بين الرجاء واليأس هائل وان كان حيناً قصيراً ولكنه اشراف على طلوع الامل

او انقطاعه (ومن التعريض بالقول) حسن ثان ولايكون الا بعد الاتفاق ومعرفة المحبة من المحبوب فحينئذ يقع التشكي وعقد المواعد والتعديد واحكام المودات بالتعريض وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غير مايذهبان اليه فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى الى المقصود بالكلام على حسب مايتأدى الى سمعه ويسبق الى وهمه وقد فهم كل واحد منهما عن صاحبه واجابه بما لايفهمه غيرهما الا من أيد بحس نافذ واعين بذكاء وامد بتجربة ولاسيما ان احس من معانيهما بشيء وقل مايغيب عن المتوسم المجيد هنالك لاخفاء عليه في مايريدان

(واما اعرف) فتى وجارية كانا يتحابان فارادها في بعض وصلها على بعض ما لايجمل فقالت والله لاشكونك في الملا علانية ولافضحنك فضيحة مستورة فلما كان بعد ايام حضرت الجارية مجلس بعض اكابر الملوك واركان الدولة واجل رجال الخلافة وفيه ممن يتوقى امره من النساء والخدم عدد كثير وفي جملة الحاضرين ذلك الفتى لانه كان بسبب من الرئيس وفي المجلس مغنيات غيرها فلما انتهى الغناء اليها سوّت عودها واندفعت تغني بابيات قديمة وهي :

غزال قد حكى بدر التمام كشمس قد تجلت من غمام
سبى قلبي بالحـظ مراض وقد الغصن في حسن القوام
خضعت خضوع صب مستكين له وذللت ذلة مستهـام
فصلني يا فديتك في حلال فما اهوى وصالا في حرام

وعلمت انا هذا الامر فقلت :

عتاب واقع وشكاة ظلـم اتت من ظـالم حكم وخصم
تشكت ما بها لم يدر خلق سوى المشكو ما كانت تسمي



﴿ باب الإشارة بالعين ﴾

ثم يتلو التعريض بالقول اذا وقع القبول والموافقة الاشارة بلحظ العين
وانه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمود ويبلغ المبلغ العجب ويقطع به ويتواصل
ويوعد ويهدد وينتهر ويبسط ويؤمر وينهى وتضرب به الاوعاد وينبه على الرقيب
ويضحك ويحزن ويسئل ويجاب ويمنع ويعطي ولكل واحد من هذه المعاني
ضرب من هيئة اللحظ لايوقف على تحديده الا بالرؤية ولايمكن تصويره ولا
وصفه الا الاقل منه وانا واصف ماتيسر من هذه المعاني فالاشارة بمؤخر العين
الواحدة نهي عن الامر وتفتيرها اعلام بالقبول وادامة نظرها دليل على التوجع
والاسف وكسر نظرها آية الفرح والاشارة الى اطباقها دليل على التهديد
وقلب الحدقة الى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار اليه والاشارة
الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال وقلب الحدقة من وسط العين الى الموق
بسرعة شاهد المنع وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عام وسائر ذلك
لايدرك الا بالمشاهدة واعلم ان العين تنوب عن الرسل ويدرك بها المراد
والحواس الاربع ابواب الى القلب ومنافذ نحو النفس والعين ابلغها واصحها دلالة
واوعاها عملاً وهي رائد النفس الصادق ودليلها الهادي ومرآتها المجلوة التي بها
تقف على الحقائق وتحوز الصفات وتفهم المحسوسات وقد قيل ليس المخبر
كالمعاين وقد ذكر ذلك افليمون صاحب الفراسة وجعلها معتمدة في الحكم
وبحسبك من قوة ادراك العين انها اذا لاقى شعاعها شعاعاً مجلواً صافياً اما
حديداً مصقولا او زجاجاً او ماء او بعض الحجارة الصافية او سائر الاشياء
المجلوة البراقة ذوات الرفيف والبصيص واللمعان يتصل اقصى حدوده بجسم
كثيف ساتر مانع كدر انعكس شعاعها فادرك الناظر نفسه وجاوزها عياناً
وهو الذي ترى في المرآة فانت حينئذ كالناظر اليك بعين غيرك ودليل عياني

على هذا انك تأخذ مرآتين كبيرتين فتمسك احدهما بيمينك خلف رأسك والثانية بيسارك قبالة وجهك ثم تزويها قليلًا حتى يلتقيان بالمقابلة فانك ترى قفاك وكل ماوراءك وذلك لانعكاس ضوء العين الى ضوء المرآة التي خلفك اذ لم تجد منفذاً في التي بين يديك ولما لم تجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف الى ماقابله من الجسم وان كان صالح غلام ابي اسحق النظام خالف في الادراك فهو قول ساقط لم يوافقه عليه احد ولو لم يكن من فضل العين الا ان جوهرها ارفع الجواهر واعلاها مكانا لانها نورية لاتدرك الالوان سواها ولاشيء اعد مرمى ولا انأى غاية منها لانها تدرك بها اجرام الكواكب التي في الافلاك البعيدة وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبعدها وليس ذلك الا لاتصالها في طبع خلقتها بهذه المرآة فهي تدركها وتصل اليها بالطفر لاعلى قطع الاماكن والحلول في المواضع وتنقل الحركات وليس هذا لشيء من الحواس مثل الذوق واللمس لايدركان الا بالمجاورة والسمع والشم لايدركان الا من قريب ودليل على ماذكرناه من الطفر انك ترى المصوت قبل سماع الصوت وان تعمدت ادراكهما معاً وان كان ادراكهما واحداً لما تقدمت العين والسمع .

﴿ باب المراسلة ﴾

ثم يتلو ذلك اذا امتزجا المراسلة بالكتب وللكتب آيات ولقد رأيت اهل هذا الشأن يبادرون لقطع الكتب ومحلها في الماء ومحو اثرها فرب فضيحة كانت بسبب كتاب وفي ذلك اقول :

عزيز عليّ اليوم قطع كتابكم ولكنه لم يلف للود قاطع
فآثرت ان يبقى وداد ويمتحي مداد فان الفرع للاصل تابع
فكم من كتاب فيه ميتة ربه ولم يدره اذ عقته الاصابع

ويبغي ان يكون شكل الكتاب الطف الاشكال وجنسه املح الاجناس ولعمري ان الكتاب للسان في بعض الاحايين اما لحصر في الانسان واما لحياء واما لهيبة نعم حتى ان لوصول الكتاب الى المحبوب وعلم المحب انه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية وان لرد الجواب والنظر اليه سروراً يعدل اللقاء ولهذا ماترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه ولعهدي ببعض اهل المحبة ممن كان يدري ما يقول ويحسن الوصف ويعبر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدة ويجيد النظر ويدقق في الحقائق لايدع المراسلة وهو ممكن الوصل قريب الدار اتي المزار ويحكي انها وجوه اللذة ولقد اخبرت عن بعض السقاط الوضعاء انه كان يضع كتاب محبوبه على احليله وان هذا النوع من الاغتلام قبيح وضرب من الشبق فاحش واما سقي الحبر بالدمع فاعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه بسقي الحبر بالريق وفي ذلك اقول :

جواب أتاني عن كتاب بعثته ... فسكن مهتاجاً وهيج ساكناً
سقيت بدمع العين لما كتبته ... فعال محب ليس في الود خائناً
فما زال ماء العين يمحو سطوره ... فيا ماء عيني قد محوت المحاسنا
غدا بدموعي اول الخط بيناً ... واضحى بدمعي آخر الخط بائنا

(خبر) ولقد رأيت كتاب المحب الى محبوبه وقد قطع في يده بسكين له فسال الدم واستمد منه وكتب به الكتاب اجمع ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت انه بصبغ اللك .

﴿ باب السفير ﴾

ويقع في الحب بعد هذا بعد حلول الثقة وتمام الاستئناس ادخال السفير ويجب تخيره وارتياده واستجادته واستفراهه فهو دليل عقل المرء وبيده حياته وموته وستره وفضيحته بعد الله تعالى فينبغي ان يكون الرسول ذا هيأة حاذقاً

يكتفي بالاشارة ويقرطس عن الغائب ويحس من ذات نفسه ويضع من عقله ما اعقله باعثه ويؤدي الى الذي ارسله كل مايشاهد على وجهه كاتما للاسرار حافظاً للعهد وفياً قنوعاً ناصحاً ومن تعدى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ماتقصه منها وفي ذلك اقول شعراً منه :

رسولك سيف في يمينك فاستجد حساماً ولاتضرب به قبل صقله
فمن يك ذا سيف كهام فضره يعود على المعي منه بجهله

واكثر مايستعمل المحبون في ارسالهم الى من يحبونه اما خائلا لايؤبه له ولا يهتدي للتحفظ منه لصباه او لهيأة رثة او بذاذة في طلعته واما جليلاً لايلحقه الظن لنسك يظهره او لسن عالية قد بلغها وما اكثر هذا في النساء ولا سيما ذوات الكاكير والتسابيح والثوبين الاحمرين واني لاذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيث مارأينها او ذوات صناعة يقرب بها من الاشخاص فمن النساء كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصناع في المغزل والنسج وما اشبه ذلك او ذا قرابة من المرسل اليه لايشح بها عليه فكم منيع سهل بهذه الاوصاف وعسير يسر وبعيد قرب وجموح انس وكم داهية دهت الحجب المصونة والاستار الكثيفة والمقاصير المحروسة والسدد المضبوطة لارباب هذه النعوت ولولا ان انبه عليها لما ذكرتها ولكن لقطع النظر فيها وقلة الثقة بكل واحد والسعيد من وعظ بغيره وبالصد اسئل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره ولا ازال عن الجميع ظل العافية

(خبر) واني لاعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة ويعقد الكتاب في جناحها وفي ذلك اقول قطعة منها

تخيرها نوح فما خاب ظنه لديها وجاءت نحوه بالبشائر
سأودعها كتبي اليك فها كها رسائل تهدى في قوادم طائر

﴿ باب طي السر ﴾

ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسان وجحود المحب ان سئل والتصنع باظهار الصبر وان يري انه عزهاة (١) خلي ويأبى السر الدقيق ونار الكلف المتأججة في الضلوع الا ظهوراً في الحركات والعين ودبيباً كدبيب النار في الفحم والماء في يبيس المدر وقد يمكن التمويه في اول الامر على غير ذي الحس اللطيف واما بعد استحكامه فمحال وربما يكون السبب في الكتمان تصاون المحب عن ان يسم نفسه بهذه السمة عند الناس لانه بزعمه من صفات اهل البطالة فيفر منه ويتفادى منه وما هذا وجه الصحيح فحسب المرء المسلم ان يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة واما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لايؤمر به ولا ينهى عنه اذ القلوب بيد مقلبها ولا يلزمها غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطاء والصواب وان يعتقد الصحيح باليقين واما المحبة فخلقة وانما يملك الانسان حركات جوارحه المكتسبة وفي ذلك اقول :

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى ... وسيان عندي فيك لاح وساكت
يقولون جانبت التصاون جملة ... وانت عليم بالشريعة قانت
فقلت لهم هذا الرياء بعينه ... صراحاً وزي للمرائين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد ... وهل منعه في محكم الذكر ثابت
اذا لم اواقع محرماً اتقي به ... مجيئي يوم البعث والوجه باهت
فلست ابالي في الهوى قول لائم ... سواء لعمري جاهر او مخافت
وهل يلزم الانسان الا اختياره ... وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت

---

(١) قال في الاساس : هو عزهاة عن اللهو والنساء اذا لم يردهن ورغب عنهن . قال
اذا كنت عزهاة عن اللهو والصبا ... فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

(خبر) واني لأعرف بعض من امتحن بشيء من هذا فسكن الوجد بين جوانحه فرام جحده الى ان غلط الامر وعرف ذلك في شمائله من تعرض للمعرفة ومن لم يتعرض وكان من عرض له بشيء نجهه(١) وقبحه الى ان كان من اراد الحظوة لديه من اخوانه يوهمه تصديقه في انكاره وتكذيب من ظن به غير ذلك فسر بهذا ولقد دخلت عليه يوماً قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما في ضميره وهو يثني غاية الاثناء اذا اختار منهما الشخص الذي كان يتهم بملاقاته فما هو الا ان وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيأته الاولى واصفر لونه وتفاوتت معاني كلامه بعد حسن تثقيف فقطع كلامه المتكلم معه فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره فقيل له ما عدا عما بدا فقال هو ما تظنون عذر من عذر وعذل من عذل وفي ذلك اقول شعراً منه :

ماعاش الا لان الموت يرحمه   مما يرى من تباريح الضنى فيه

وانا اقول :

دموع الصب تنسفك   وستر الصب ينهتك
كأن القلب اذ يبدو   قطاة ضمها شرك
فيا أصحابنا قولوا   فان الرأي مشترك
الى كم ذا أكاتمه   وما لي عنه متَّرك

وهذا انما يعرض عند مقاومة طبع الكتمان والتصاون لطبع الحب وغلبته فيكون صاحبه متحيراً بين نارين محرقتين وربما كان سبب الكتمان ابقاء المحب على محبوبه وان هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع وفي ذلك اقول :

درى الناس أني فتى عاشق   كئيب معنى ولكن بمن
اذا عاينوا حالتي ايقنوا   وان فتشوا رجعوا في الظن
كخط يرى رسمه ظاهراً   وان طلبوا شرحه لم يبن

(١) نجهه الرجل رده اقبح رد

كصوت حمام على ايكة　　يرجع بالصوت في كل فن
تلذ محواه أسماعنا　　ومعناه مستعجم لم يبن
يقولون بالله سم الذي　　نفى حبه عنك طيب الوسن
وهيهات دون الذي حاولوا　　ذهاب العقول وخوض الفتن
فهم ابداً في اختلاج الشكوك　　بظن كقطع وقطع كظن

وفي كتمان السر اقول قطعة منها :

للسر عندي مكان لو يحل به　　حتى اذا لا اهتدى ريب المنون له
اميته وحياة السر ميتته　　كما سرور المنى في الهوى الوله

وربما كان سبب الكتمان توقي المحب على نفسه من اظهار سره لجلالة قدر المحبوب

(خبر) ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعراً تغزل فيه بصبح ام المؤيد رحمه الله فبعث به جارية ادخلت على المنصور محمد ابن ابى عامر ليبتاعها عامر فقتلها

(خبر) وعلى مثل هذا قتل احمد بن مغيث واستئصال آل مغيث والتسجيل عليهم الا يستخدم بواحد منهم ابداً حتى كان سبباً لهلاكهم وانقراض بيتهم فلم يبق منهم الا الشريد الفال وكان سبب ذلك تغزله باحدى بنات الخلفاء ومثل هذا كثير ويحكى عن الحسن بن هانيء انه كان مغرماً بحب محمد بن هارون المعروف بابن زبيدة واحس منه ببعض ذلك فانتهره على أدامة النظر اليه فذكر عنه انه قال انه كان لايقدر ان يديم النظر اليه الا مع علة السكر على محمد وربما كان سبب الكتمان الا يعرف المحبوب او يعرف به فاني أدري من كان محبوبه له سكناً وحليساً ولو باح بأقل سبب من انه يهواه لكان منه مناط الثريا قد تعلت نجومها وهذا ضرب من السياسة ولقد كان يبلغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه الى فوق الغاية وابعد النهاية فما هو الا ان باح اليه

بما يجد صار لايصل الى التافه اليسير مع التيه ودالة الحب وتمنع الثقة بملك الفؤاد ودهب دلك الانساط ووقع التصنع والتجني فكان احاً فصار عبداً وطيراً فصار اسيراً ولو راد في برحه شيئاً الى ان يعلم حاصة المحبوب دلك لما رآه الا في الطيف ولاقطع القليل والكثير واماد دلك عليه بالضرر وربما كان من اسباب الكتمان الحياء الغالب على الانسان وربما كان من اسباب الكتمان ان يرى المحب من محبوبه انحرافاً وصداً ويكون دا نفس ابية فيستتر بما يجد لئلا يشمت به عدو او يريهم ومن يحب هوان دلك عليه

﴿ باب الاذاعة ﴾

وقد تعرض في الحب الاداعة وهو من منكر مايحدث من اعراضه ولها اسباب منها ان يريد صاحب هدا الفعل ان يتزيي بزي المحبين ويدخل في عدادهم وهده حلافة لاترضي وتحليح بغيض ودعوى في الحب زائفة وربما كان من اسباب الكشف غلبة الحب وتسور الجهر على الحياء فلا يملك الانسان حينئد لنفسه صرفاً ولاعدلا وهدا من اسد غايات العشق واقوى تحكمه على العقل حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح والقبيح في هيئة الحسن وهنالك يرى الخير شراً والشر خيراً وكم من مصون الستر مسبل القناع مسدول الغطاء قد كشف الحب ستره واباح حريمه واهمل حماه فصار بعد الصيانة علماً وبعد السكون مثلًا وأحب شيء اليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه الناقص عن دكره ولطالت استعادته منه فسهل ما كان وعراً وهان ما كان عزيزاً ولان ما كان شديداً ولقد دري هتى من سروات الرجال وعلية احواني قد دهي بمحبة حارية مقصورة فلم بها وقطعه حبها عن كثير من مصالحه وظهرت آيات هواه لكل دي نصر الى ان كانت هي تعدله على ما ظهر منه مما تقوده اليه هوى .

(خبر) وحدثني موسى بن عاصم بن عمرو قال كنت بين يدي ابي الفتح والدي رحمه الله وقد امرني بكتاب اكتبه اذ لمحت عيني جارية كنت اكلف بها فلم املك نفسي ورميت الكتاب عن يدي وبادرت نحوها وبهت ابي وظن انه عرض لي عارض ثم راجعني عقلي فمسحت وجهي ثم عدت واعتذرت بانه علني الرعاف واعلم ان هذا داعية هار المحبوب وفساد في التدبير وضعف في السياسة وما شيء من الاشياء الا وللمأخذ فيه سنة وطريقة متى تعداها الطالب او خرق في سلوكها انعكس عمله عليه وكان كده عناء وتعبه هباء ومحنته زيادة وكلما زاد عن وجه السيرة انحرافاً وفي نحيها اغراقاً وفي غير الطريق ايغالا ازداد عن بلوغ مراده بعداً وفي ذلك اقول قطعة منها :

ولا تسع في الأمر الجسيم تهازئاً ولا تسع جهراً في اليسير تريده
وقابل افانين الزمان متى يرد عليك فان الدهر جم وروده
واشكالها من حسن سعيك يكفك اليسير عسير والشريد شريده
الم تبصر المصباح اول وقده واشعاله بالنفح يطفا وقوده
وان ينصرم لفحه ولهيبه فنفحك يذكيه وتبدو مدوده

(خبر) واني لاعرف من اهل قرطبة من ابناء الكتاب وجلة الخدمة من اسمه احمد بن فتح كنت اعهده كثير التصاون من حماة العلم وطلاب الادب يبز اصحابه في الانقباض ويموت في الدعة لايظهر الا في حلقة فضل ولايرى الا في محفل مرضي محمود المذاهب جميل الطريقة ماثلاً بنفسه داهياً بها ثم اصدت الاقدار داري من داره فأول خبر طرأ علي بعد انتقالي شاطنة انه خلع عذاره في حب فتى من ابناء الفتايين يسمى ابراهيم بن احمد اعرفه لاتستأهل صفاته محبة من بيته خير وتقدم واموال عريضة ووفر تالد وصح عندي انه كشف رأسه وابدى وجهه ورمى رسنه وحسر محياه وشمر عن ذراعيه وصمد صمد الشهوة فصار حديثاً للسمار ومدافعاً بين نقلة الاخبار وتهودي ذكره في

الاقطار وجرت نقلته في الارض راحلة بالتعجب ولم يحصل من دلك الا على كشف الغطاء واداعة السر وشعة الحديث وفتح الاحدوثة وشرود محبوبه عنه جملة والتحظير عليه من رؤيته البتة وكان غنياً عن دلك وعندوحة واسعة ومعزل رحب عنه ولو طوى مكنون سره واخفى نليات ضميره لاستدام لباس العافية ولم ينهج (١) برد الصيانة ولكان له في لقاء من بلي به ومحادثته ومجالسته امل من الآمال وتعلل كاف وان حل العذر لبقطع به والحجة عليه قائمة الا ان يكون مختلطاً في تمييزه او مصاباً في عقله بخلل ماقدحه وربما آل دلك لعذر صحيح واما ان كانت ثقة او ثنت مسكة فهو ظالم في تعرضه مايعلم ان محبوبه يكرهه ويتأذى به هذا غير صفة اهل الحب وسيأتي هذا مفسراً في باب الطاعة ان شاء الله تعالى

﴿ ومن اسباب الكشف وجه ثالث ﴾

وهو عند اهل العقول وجه مردول وفعل ساقط ودلك ان يرى المحب من محبوبه عدراً او مللا او كراهة فلا يجد طريق الانتصاف منه الاعلا ضرره عليه اعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار وهدا اشد العار واقبح الشار واقوى لشواهد عدم العقل ووجود السخف وربما كان الكشف من حديث ينتشر واقوايل تفشو وتوافق قلة مبالاة من المحب بدلك ورضى بظهور سره اما لاعجاب واما لاستظهار على بعض مايؤمله وقد رأيت هدا الفعل لبعض احواني من ابناء القواد وقرأت في بعض اخبار الاعراب ان نساءهم لايقنعن ولايصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه ويجاهر ويعلن وينوه بدكرهن ولا ادري ما معنى هدا على انه يدكر عنهن العفاف واي عفاف مع امرأة اذ اقصى مناها وسرورها الشهرة في هدا المعنى

---

(١) نهج الثوب اخلقه

﴿ باب الطاعة ﴾

ومن عجيب مايقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه وصرفه طباعه قسراً الى طباع من يحبه ربما يكون المرء شرس الخلق صعب الشكيمة جموح القياد ماضي العزيمة حمي الانف ابي الخسف فما هو الا ان يتنسم نسيم الحب ويتورط غمره ويعوم في بحره عادت الشراسة ليناً والصعوبة سهلة والمضاء كلالة والحمية استسلاماً وفي ذلك اقول قطعة منها :

هل للوصال الينا معاد وهل لتصاريف ذا الدهر حد
فقد اصبح السيف عبد القضيب واضحى الغزال الاسير أسد

واقول شعراً منه :

واني وان تبت لاهون هالك كذائب تبر زل من يد جهبد
على ان قلبي في هواك لذادة فيا عجباً من هالك متلذذ

ومنها :

ولو ابصرت انوار وجهك فارس لاعياهم عن هرمزان وموبذ

وربما كان المحبوب كارهاً لاظهار الشكوى متبرماً بسماع الوجد فترى المحب حينئذ يكتم حزنه ويكظم اسفه وينطوي على غلته وان الحبيب متجن فعندها يقع الاعتذار عند كل ذنب والاقرار بالجريمة والمرء منها بريء تسليماً لقوله وتركاً لمخالفته واني لاعرف من دهي بمثل هذا فما كان يملك من توجيه الذنب نحوه ولاذنب له وايقاع العتاب عليه والسخط وهو نقي الجلد واقول شعراً الى بعض احوالي ويقرب مما نحن فيه وان لم يكن منه :

وقد كنت تلقاني بوجه لقربه تدان وللهجران عن قربه سخط
وما تكره العتب اليسير سجيتي على انه قد عيب في الشعر الوخط

فقد يتصف الانسان في الفكر نفسه — وقد يحس الجيلان في الوجه والنقط
ترى اذا قلت ويحش امرها — اذا افرطت يوماً وهل يحمد الفرط

ومنه :

اعنه فقد اصحى لفرط همومه — يبكي اذ القرطاس والحبر والخط

ولايقول قائل ان صبر المحب على ذلة المحبوب دناءة في النفس فقد اخطأ وقد علمنا ان المحبوب ليس له كفواً ولا نظيراً فيقارض باذاه وليس سبه وجفاؤه مما يعير به الانسان ولا يبقى ذكره على الاحقاب ولا يقع ذلك في مجالس الخلفاء ولا في مقاعد الرؤساء فيكون الصبر مستجرة المذلة وضراعة قائدة للاستهانة فقد ترى الانسان يكلف بامته التي يملك رقها ولايحول حائل بينه وبين التعدي عليها فكيف الانتصار منها وسل الانتصاف من السب غير هذه انما ذلك بين علية الرجال الذين تحصل انفاسهم وتتسع معاني كلامهم فتوجه لها الوجوه العيدة لانهم لايوقعونها سدى ولايلقونها هملاً واما المحبوب فصعدة ثابتة وقضيب مأد يحنو ويرضى متى شاء لالمعنى وفي ذلك اقول

ليس التذلل في الهوى يستنكر — فالحب فيه يخضع المستكبر
لاتعجبوا من ذلتي في حالة — قد ذل فيها قبلي المستنصر
ليس الحبيب مماثلاً ومكافياً — فيكون صبرك ذلة اذ تصبر
تفاحة وقعت فألم وقوعها — هل قطعها منك انتصاراً يذكر

(خبر) وحدثني ابو دلف الوراق عن مسلمة ابن احمد الفيلسوف المعروف بالمرجيطي انه قال في المسجد الذي بشرقي مقبرة قريش بقرطبة الموازي لدار الوزير ابي عمرو احمد بن محمد بن حدير رحمه الله في هذا المسجد كان مقدم بن الاصفر مريضاً ايام حداثته بعشق عجيب فتى الوزير ابي عمرو المذكور وكان يترك الصلاة في مسجد مسرور وبها كان سكناه ويقصد في الليل والنهار الى هذا المسجد بسبب عجيب حتى اخذه الحرس غير ما مرة في الليل

في حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة وكان يقعد وينظر منه الى ان
كان الفتى ينصب ويصحر ويقوم اليه فيوجهه ضرباً ويلطم خديه وعينيه فيسر
بذاك ويقول هذا والله انقضى امنيتي والآن قرت عيني وكان على هذا زماناً
يماشيه قال ابو دلف ولقد حدثنا مسلم بهذا الحديث غير مرة بحضرة عجب
عندما كان يرى من وجاهة مقدم بن الاصفر وعرض جاهه وعافيته فكانت
حال مقدم بن الاصفر هذا قد حلت جداً واختص بالظفر ابن ابى عامر
اختصاصاً شديداً واتصل بوالدته واهله وجرى على يديه من بنيان المساجد
والسقايات وتسهيل وجوه الخير غير قليل مع تصرفه في كل ما يتصرف فيه اصحاب
السلطان من العناية بالناس وغير ذلك

(خبر) واشنع من هذا انه كانت لسعيد بن منذر بن سعيد صاحب الصلاة
في جامع قرطبة ايام الحكم المستنصر بالله رحمه الله جارية يحبها حباً شديداً
فعرض عليها ان يعتقها ويتزوجها فقالت له ساخرة به وكان عظيم اللحية ان
لحيتك استبشع عظمها فان حذفت منها كان ما تزعمه فاعمل الجلمين فيها حتى
لطفت ثم دعا بجماعة شهود واشهدهم على عتقها ثم خطبها الى نفسه فلم ترض به
وكان في جملة من حضر اخوه حكم بن منذر فقال لمن حضر اعرض عليها اني
اخطبها انا ففعل فاجابت اليه فتزوجها في ذلك المجلس بعينه ورضي بهذا العار
الفادح على ورعه ونسكه واجتهاده فانا ادركت سعيداً هذا وقتله البربر يوم
دخولهم قرطبة عنوة وانتهابهم اياها وحكم المذكور اخوه هو رأس المعتزلة
بالاندلس وكبيرهم واستاذهم ومتكلمهم وناسكهم وهو مع ذلك شاعر طيب وفقيه
وكان اخوه عبد الملك بن منذر متهماً بهذا المذهب ايضاً وولي خطة الرد ايام الحكم
رضي الله عنه وهو الذي صلبه المنصور بن ابى عامر اذ اتهمه هو وجماعة من
الفقهاء والقضاة بقرطبة انهم يرومون سراً لعبد الرحمن بن عبيد الله بن امير المؤمنين الناصر
رضي الله عنهم فتلف عبد الرحمن وصلب عبد الملك بن منذر وبدد شمل جميع

من ابنهم وكان ابوهم قاضي القضاة منذر ابن سعيد متهماً بمذهب الاعتزال ايضاً وكان اخطب الناس واعلمهم بكل فن واورعهم واكثرهم هزلا ودعابة وحكم المذكور في الحياة في حين كتابتي اليك بهذه الرسالة قد كف بصره وأسن جداً

(خبر) ومن عجيب طاعة المحب لمحبوبه اني اعرف من كان سهر الليالي الكثيرة ولقي الجهد الجاهد فقطعت قلبه ضروب الوجد ثم ظفر بمن يحب وليس به امتناع ولا عنده دفع لحبيبٍ رأى منه بعض الكراهة لما نواه تركه وانصرف عنه لاتعففاً ولاتخوفاً لكن توقفاً عند موافقته رضاه ولم يجد من نفسه معينا على اتيان ما لم ير له اليه نشاطاً وهو يجد ما يجد واني لاعرف من فعل هذا الفعل ثم ندم وتندم ما ظهر من المحبوب فقلت في ذلك ٠

عافص (١) الفرصة واعلم انها كمضي البرق تمضي الفرص

كم امور امكنت امهلها هي عندي اذ تولت غصص

بادر الكنز الذي الفيته وانتهز صيداً كما ذا قنص

ولقد عرض مثل هذا بعينه لابي المظفر عبد الرحمن ابن احمد بن محمود صديقنا وانشدته ابياتاً لي فطار بها كل مطار واحدها مني فكان مجراه

(خبر) ولقد سألني يوماً ابو عبد الله محمد بن كليب من اهل القيروان ايام كوني بالمدينة وكان طويل اللسان جداً متفنناً للسؤال في كل فن فقال لي وقد جرى بعض ذكر الحب ومعانيه اذا كره من احب لقائي وتجنب قربي فما اصنع قلت ارى ان تسعى في ادخال الروح على نفسك بلقائه وان كره فقال لكني لا ارى ذلك بل اؤثر هواه على هواي ومراده على مرادي واصبر واصبر ولو كان في ذلك الحتف فقلت له اني انما احببته لنفسي وللالتذاذ بصورته

---

(١) عافصة عفاصاً ومعافصة فاجأه واخذه على غرة منه

فانا اتبع قياسي واقود اصلي واقفو طريقتي في الرغبة في سرورها فقال لي هذا ظلم من القياس اشد من الموت ماتمني له الموت واعز من النفس مابذلت له النفس فقلت له ان بذلك نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً ولو أمكنك الا تبذلها لما بذلتها وتركك لقائه اختياراً منك انت فيه ملوم لاضرارك بنفسك وإدخالك الحتف عليها فقال لي انت رجل جدلي ولا جدل في الحب يلتفت اليه فقلت له اذا كان صاحبه مأوفاً (١) فقال واي آفة اعظم من الحب .

(باب المخالفة)

وربما اتبع المحب شهوته وركب رأسه فبلغ شفاءه من محبوبه وتعمد مسرته منه على كل الوجوه سخط او رضي ومن ساعده على الوقت هذا وثبت جنانه واتيحت له الاقدار استوى لذته جميعا وذهب عنه وانقطع همه ورأى امله وبلغ مرغوبه وقد رأيت من هذه صفته وفي ذلك اقول ابياتاً منها :

اذا انا بلغت نفسي المنى　　من رشأ مازال لي ممرضاً
فما أبالي الكره من طاعة　　ولا ابالي سخطاً من رضا
اذا وجدت الماء لابد أن　　أطفي به مشعل جمر الغضا

(باب العاذل)

وللحب آفات فأولها العاذل والعذال اقسام فأصلهم صديق قد اسقطت مؤونة التحفظ بينك وبينه فعذله افضل من كثير المساعدات وهي من الحظ والرأي وفي ذلك زاجر للنفس عجيب وتقوية لطبيعة لها عرض وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة ولاسيا ان كان رفيقاً من قوله حسن التواصل الى ما يرد من المعاني

---

(١) الآفة العاهة : وأصابته آفة فهو مئوف

بلفظه عالماً بالاوقات التي يؤكد فيها النهي وبالاحيان التي يريد فيها الامر والساعات التي يكون فيها وقفاً بين هذين على قدر مايرى من تسهيل العاشق وتوعره وقبوله وعصيانه ثم عادل زاجر لايفيق ابداً من الملامة وذلك خطب شديد وعبء ثقيل ووقع لي مثل هذا وان لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يشبهه وذلك ان ابا السري عمار بن زياد صديقنا اكثر من عذلي على نحو نخوته واعان على بعض من لامني في ذلك الوجه ايضاً وكنت اظن انه سيكون معي مخطئاً كنت او مصيباً لوكيد صداقتي معه وصحيح اخوتي له ولقد رأيت من اشد وجده وعظم كلفه حتى كان العذل احب شيء اليه ليرى العاذل عصيانه ويستلذ مخالفته ويحصل مقاومته اللائمة وغلبته اياه كالملك الهازم لعدوه والمجادل الماهر الغالب لخصمه ويسر بما يقع منه في ذلك وربما كان هذا المستحلي لعذل العاذل باشياء يوردها توجب ابتداء العذل وفي ذلك اقول ابياتاً منها

احب شيء الى اللوم والعذل كي اسمع اسم الذي ذكراه لي امل
كأنني شارب بالعذل صافية وباسم مولاي بعد الشرب انتقل

﴿ باب المساعد من الاخوان ﴾

ومن الاسباب المتمناة في الحب ان يهب الله عز وجل للانسان صديقاً مخلصاً لطيف القول بسيط الطول حسن المأخذ دقيق المنفذ متمكن البيان مرهف اللسان جليل الحلم واسع العلم قليل المخالفة عظيم المساعدة شديد الاحتمال صابراً على الادلال جم الموافقة جميل المخالقة مستوي المطابقة محمود الخلائق مكفوف البوائق محتوم المساعدة كارهاً للمباعدة نبيل المداخل مصروف الغوائل غامض المعاني عارفاً بالاماني طيب الاخلاق سري الاعراق مكتوم السر كثير البر صحيح الامانة مأمون الخيانة كريم النفس نافذ الحس. صحيح الحدس مضمون

العون كامل الصون مشهور الوفاء طاهر الصفاء ثابت القريحة مدلول الصبيحة مستيقن الوداد سهل الانقياد حسن الاعتقاد صادق اللهجة خفيف المهجة عفيف الطباع رحب الذراع واسع الصدر متخلقاً بالصبر يألف الانحاء ولا يعرف الاعراض يستريح اليه بلابله ويشاركه في حلوة فقره ويفاوضه في مكتوماته وان فيه للمحب لاعظم الراحات واين هذا فان ظفرت به يداك فشدهما عليه شد الضنين وامسك بهما امساك البخيل وصنه بطارفك وتالدك فمعه يكمل الانس وتنجلي الاحزان ويقصر الزمان وتطيب الاحوال ولن يفقد الانسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلاً ورأياً حسناً ولذلك اتخذ الملوك الوزراء والدخلاء كي يخففوا عنهم بعض ما حملوه من شديد الامور وطوقوه من فادح الاحمال ولكي يستغنوا بآرائهم ويستمدوا بكفايتهم والا فليس في قوة الطبيعة ان تقاوم كل مايرد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها ولقد كان بعض المحبين لعدمه هذه الصفة من الاخوان وقلة ثقته بهم لما جربه من الناس وانه لم يعدم من باح اليه بشيء من سره احد وجهين اما ازراء على رأيه واما اذاعة لسره اقام الوحدة مقام الانس وكان ينفرد في المكان النازح عن الانيس ويناجي الهوى ويكلم الارض ويجد في ذلك راحة كما يجد المريض في التأوه والمحزون في الزفير فان الهموم اذا ترادفت في القلب ضاق بها فان لم يفض منها شيء باللسان ولم يسترح الى الشكوى لم يلبث ان يهلك غماً ويموت اسفاً ومارأيت الاسعاد اكثر منه في النساء فعندهن من المحافظة على هذا الشأن والتواصي بكتمانه والتواطىء على طيه اذا اطلعن عليه ماليس عند الرجال ومارأيت امرأة كشفت سر متحابين الا وهي عند النساء ممقوتة مستثقلة مرمية عن قوس واحدة وانه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن مالا يوجد عند الفتيات لان الفتيات منهن ربما كشفن ماعلمن على سبيل التغاير وهذا

لايكون الا في الندرة واما العجائز فقد يئس من انفسهن فانصرف الاشفاق محضاً الى غيرهن

(خبر) واني لاعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على احدى جواريها انها تعشق فتى من اهلها ويعشقها وان بينهما معان مكروهة وقيل لها ان جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها جلية امرهم فاخذتها وكانت غليظة العقوبة فاذاقتها من انواع الضرب والاذاء مالايصبر على مثله جلداء الرجال رجاء ان تبوح لها بشيء مما ذكر لها فلم تفعل البتة

(خبر) واني لاعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بها وكان في غير ملكها فعرفته الامر فرام الانكار فلم يتهيأ له ذلك فقالت له مالك ومن ذا عصم فلا تبالي بهذا فوالله لا اطلعت على سركما احداً ابداً ولو امكنني ان ابتاعها لك من مالي ولو احاط به كله لجعلتها لك في مكان تصل اليها فيه ولا يشعر بذلك احد وانك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال واحب اعمالها اليها وارجاها للقبول عندها سعيها في تزويج يتيمة واعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة وما اعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء الا انهن متفرغات البال من كل شيء الا من الجماع ودواعيه والغزل واسبابه والتألف ووجوهه لاشغل لهن غيره ولاخلقن لسواه والرجال مقتسمون في كسب المال وصحبة السلطان وطلب العلم وحياطة العيال ومكابدة الاسفار والصيد وضروب الصناعات ومباشرة الحروب وملاقاة الفتن وتحمل المخاوف وعمارة الارض وهذا كله متحيف للفراغ صارف عن طريق البطل وقرأت في سير ملوك السودان ان الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها ابد الدهر لانهم يقولون ان المرأة اذا بقيت بغير شغل انما تتشوق الى الرجال وتحن الى النكاح ولقد شاهدت النساء وعلمت من اسرارهن مالايكاد يعلمه غيري لاني

ربيت في حجورهن ونشأت بين ايديهن ولم اعرف غيرهن ولا جالست الرجال الا وانا في حد الشباب وحين تبقل وجهي وهن علمني القرآن وروينني كثيراً من الاشعار ودربني في الخط ولم يكن وكدي واعمال ذهني مذ اول فهمي وانا في سن الطفولة جداً الا تعرف اسبابهن والبحث عن اخبارهن وتحصيل ذلك وانا لاانسى شيئاً مما اراه منهن واصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن في جهتهن فطرت به فاشرفت من اسبابهن على غير قليل وسيأتي ذلك مفسراً في ابوابه ان شاء الله تعالى

﴿ باب الرقيب ﴾

ومن آفات الحب الرقيب وانه لحمى باطنة وبرسام ملح وفكر مكب والرقباء اقسام فاولهم مثقل بالجلوس غير متعمد في مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه وعزما على اظهار شيء من سرهما والبوح بوجدهما والانفراد بالحديث ولقد يعرض للمحب من القلق بهذه الصفة مالايعرض له مما هو اشد منها وهذا وان كان يزول سريعاً فهو عائق حال دون المراد وقطع متوفر الرجاء

(خبر) ولقد شاهدت يوماً محبين في مكان قد ظنا انهما انفردا فيه وتأهبا للشكوى فاستحليا ما هما فيه من الخلوة ولم يكن الموضع حمى فلم يلبثا ان طلع عليهما من كانا يستثقلانه فرأى فعدل الي واطال الجلوس معي فلو رأيت الفتى المحب وقد تمازج الاسف البادي على وجهه مع الغضب لرأيت عجباً وفي ذلك اقول قطعة منها :

يطيل جلوساً وهو اثقل جالس ويبدي حديثاً لست ارضى فنونه
شمام ورضوى واللكام ويذبل ولبنان والصمان والحزن دونه

ثم رقيب قد احس من امرهما بطرف وتوجس من مذهبهما شيئاً فهو يريد ان يستبري حقيقة ذلك فيدمن الجلوس ويطيل القعود ويتقصى بالحركات ويرمق

الوجوه ويحصل الاعاس وهذا اعدا من الحرب واني لاعرف من هم ان يادنس رقيباً هذه صفته وفي ذلك اقول قطعة منها :

مواصل لايف (١) قصداً اعظم بهذا الوصال غماً
صار وصرنا لفرط ما لا يزول كالاسم والمسمـا

ثم رقيب على المحبوب فذلك لاحيلة فيه الاترضية واذا أرضى فذلك غاية اللذة وهذا الرقيب هو الذي ذكرته الشعراء في اشعارها ولقد شاهدت من تلطف في استرضاء رقيب حتى صار الرقيب عليه رقيباً له ومتغافلا في وقت التغافل ودافعاً عنه وساعياً له ففي ذلك اقول :

ورب رقيب ارقبوه فلم يزل على سيدي عمداً ليبعدني عنه
فما زالت الالطاف تحكم أمره الى ان غدا حوفي له آمناً منه
وكان حساماً سل حتى يهدني فعاد محباً مالعمته كنه

واقول قطعة منها :

صار حيـاة وكان سهم ردى وكان سمـاً فصار درياقاً (٢)

واني لاعرف من رقب على بعض من كان يشفق عليه رقيباً وثق به عند نفسه فكان اعظم الآفة عليه واصل البلاء فيه واما اذا لم يكن في الرقيب حيلة ولا وجد الى ترضيه سبيل فلا طمع الا بالاشارة بالعين همساً وبالحاجب احياناً والتعريض اللطيف بالقول وفي ذلك متعة وبلاغ الى حين يقع به المشتاق وفي ذلك اقول شعراً اوله :

على سيدي مني رقيب محافظ وفي لمن والاه ليس بناكث

ومنـه :

ويقطع اسباب اللبانة في الهوى ويعمل فيها فعل بعض الحوارث

---

(١) يعني لايغفل في الزيارة (٢) الدرياق لغة في الترياق

كأن له في قلبه ربة ترى ... وفي كل عين مخبر بالأحادث

ومنه :

على كل من حولي رقيبان رتبا ... وقد خصني ذو العرش منهم ثالث

واشنع مايكون الرقيب اذا كان ممن امتحن بالعشق قديماً ودهي به وطالت مدته فيه ثم عري عنه بعد إحكامه لمعانيه فكان راعياً في صيانة من رقب عليه فتبارك الله اي رقيب يأتي منه واي بلاء مصبوب يحل على اهل الهوى من جهته وفي ذلك اقول :

رقيب طالما عرف الغراما ... وقاسى الوجد وامتنع المناما

ولاقى في الهوى ألماً أليما ... وكاد الحب يورده الحماما

وأتقن حيلة الصب المعنى ... ولم يضع الاشارة والكلاما

واعقبه التسلي بعد هذا ... وصار يرى الهوى عاراً وذاما (١)

وصير دون من اهوى رقيباً ... ليبعد عنه صباً مستهاما

فأي بلية صبت علينا ... واي مصيبة حلت لماما

ومن طريف معاني الرقباء اني اعرف محبين مذهبهما واحد في حب محبوب واحد بعينه فلعهدي بهما كل واحد منهما رقيب على صاحبه وفي ذلك اقول :

صبان هيمان (٢) في واحد ... كلاهما عن ضده منحرف

كالكلب في الآرى (٣) لايعتلف ... ولايخلي الغير ان يعتلف

---

(١) الذام العيب . ومنه المثل : لاتعدم الحسناء ذاما

(٢) رجل هيمان محب شديد الوجد

(٣) في المختار : مما يضعه الناس في غير موضعه قولهم للمعلف آرى وانما الآرى محبس الدابة

﴿ باب الواشي ﴾

ومن آفات الحب الواشي وهو على ضربين احدهما واش يريد القطع بين المتحابين فقط وان هذا لأفترهما (١) سوأة على انه السم الدعاف والصاب الممقر (٢) والحتف القاصد والبلاء الوارد وربما لم ينجع ترقيشه (٣) واكثر مايكون الواشي فالى المحبوب واما المحب فهيهات : حال الجريض دون القريض. ومع الجرب من الطرب شغله عما هو مانع له من استماع الواشي وقد علم الوشاة ذلك وانما يقصدون الى الخلي البال الصائل بحوزة الملك المتعتب عند اقل سبب وان للوشاة ضروباً من التحيل فمنها ان يذكر للمحبوب عمن يحب انه غير كاتم للسر وهذا مكان صعب المعاناه بطيء البرء الا ان يوافق معارضاً للمحب في محبته وهذا امر يوحب العار فلا فرج للمحبوب الا ان تساعده الاقدار بالاطلاع على بعض اسرار من يحب بعد ان يكون المحبوب ذا عقل وله حظ من تمييز ثم يدعه والمطاولة فاذا تكذب عنده نقل الواشي مع ما أظهر من الجفاء والتحفظ ولم يسمع لسره اذاعة علم انه انما زور له الباطل واضمحل ماقام في نفسه ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يحب وكان المحبوب شديد المراقبة عظيم الكتمان وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت اعلام ذلك في وجهه وحدث في حب لم يكن وركبته رجفة وأظلته فكرة ودهمته حيرة الى ان ضاق صدره وباح بما نقل اليه فلو شاهدت مقام المحب في اعتذاره لعلمت ان الهوى سلطان مطاع وبناء مشدود الاواخي (٤) وشأن نافذ وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف والانكار والتوبة والرمي بالمقاليد فبعد لأي ما صلح

---

(١) يريد اقلهما اساءة واجمهما شرا (٢) أمقر صار مراً (٣) رقش كلامه رقشاً زوقه وزخرفه (٤) كناية عن قوته ومتانة اساسه

الامر بينهما وربما ذكر الواشي ان مايظهر المحب من المحبة ليست بصحيحة وان مذهبه في ذلك شفاء نفسه وبلوغ وطره وهذا فصل وان كان شديداً في النقل فهو ايسر معاناة مما قبله لحالة المحب غير حالة المتلذذ وشواهد الوجد متفرقة بينهما وقد وقع من هذا بيد كافية في باب الطاعة وربما نقل الواشي ان هوى العاشق مشترك وهذه النار المحرقة والوجع الفاشي في الاعضاء واذا وافق الناقل لهذه المقالة ان يكون المحب فتى حسن الوجه حلو الحركات مرغوباً فيه مائلاً الى اللذات دنياوي الطبع والمحبوب امرأة جليلة القدر سرية المنصب فاقرب الاشياء سببا في اهلاكه وتصديها لحتفه فكم صريع على هذا السبب وكم من مسقي السم قطع أمعاءه لهذا الوجه وهذه كانت ميتة مروان بن احمد ابن حدير والد احمد المتنسك وموسى وعبد الرحمن المعروفين بابني لبنى من قبل قطر الندى جاريته وفي ذلك اقول محذراً لبعض اخواني قطعة منها :

وهل يأمن النسوان غير مغفل جهول لاسباب الردى متأرض

وكم واردحوضاً من الموت اسود ترشفه من طيب الطعم ابيض

والثاني واش يسعى للقطع بين المحبين لينفرد بالمحبوب ويستأثر به وهذا اشد شيء وافظعه واحرم لاجتهاد الواشي واستفادة جهده ومن الوشاة جنس ثالث وهو واش يسعى بهما جميعاً ويكشف سرهما وهذا لايلتفت اليه اذا كان المحب مساعداً

وفي ذلك اقول :

تحدث لواش ظل يكشف امرنا وما نسوى اخبارنا يتنفس

وماذا عليه من عنائي ولوعتي أما آكل الرمان والولد يضرس

ولا بد أن اورد مايشبه مانحن فيه وان كان خارجاً منه وهو شيء في بيان التنقيل والنمائم فالكلام يدعو بعضه بعضاً كما شرطنا في اول الرسالة ومافي جميع الناس شر من الوشاة وهم النمامون وان النميمة لطبع يدل على نتن الاصل

ورداءة الفرع وفساد الطبع وخبث النشأة ولا بد لصاحبه من الكذب . والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من انواعه وكل نمام كذاب وما احببت كذاباً قط واني لاسامح في اخاء كل ذي عيب وان كان عظيما واكل امره الى خالقه عز وجل وآخذ ما ظهر من اخلاقه حاشى من اعلمه يكذب فهو عندي ماح لكل محاسنه ومعف على جميع خصاله ومذهب كل مافيه فما ارجو عنده خيراً اصلًا وذلك لان كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه وكل ذأم (١) فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه حاشا الكذب فلا سبيل الى الرجعة عنه ولا الى كتمانه حيث كان ومارأيت قط ولا اخبرني من رأى كذاباً وترك الكذب ولم يعد اليه ولابدأت قط بقطيعة ذي معرفة الا ان اطلع له على الكذب فحينئذ أكون انا القاصد الى مجانبته والمتعرض لمتاركته وهي سمة مارأيتها قط في احد الا وهو مزنون (٢) في نفسه اليه نشق مغمور عليه لعاهة سوء في ذاته نعوذ بالله من الخذلان وقد قال بعض الحكماء آخ من شئت واجتنب ثلاثة . الاحمق فانه يريد ان ينفعك فيضرك . والملول فانه اوثق ماتكون به لطول الصحبة وتأكدها خذلك . والكذاب فانه يجني عليك آمن ما كنت فيه من حيث لاتشعر . وحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ حسن العهد من الايمان ﴾ وعنه عليه السلام ﴿ لايؤمن الرجل بالايمان كله حتى يدع الكذب في المزاح ﴾ حدثنا بهما ابوعمر احمد بن محمد عن محمد بن علي بن رفاعة عن علي بن عبد العزيز عن ابي عبيد القاسم ابن سلام عن شيوخه والآخر منهما مسند الى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما والله عز وجل يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا مالاتفعلون ﴾ وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سئل ﴿ هل يكون المؤمن بخيلًا فقال نعم قيل فهل يكون

---

(١) الذأم العيب (٢) مزنون متهم

المؤمن جاناً فقال نعم قيل فهل يكون المؤمن كذاباً قال لا) حدثناه احمد ابن محمد بن احمد عن احمد بن سعيد عن عبيد الله بن يحيى عن ابيه عن مالك بن انس عن صفوان بن سليم وبهذا الاسناد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لاخير في الكذب) في حديث سئل فيه . وبهذا الاسناد عن مالك انه بلغه عن ابن مسعود انه كان يقول (لايزال العبد يكذب وينكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب ويكتب عند الله من الكذابين) وبهذا الاسناد عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال (عليكم بالصدق فانه يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة واياكم والكذب فانه يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار) وروى انه أتاه صلى الله عليه وسلم فقال (يارسول الله إني استتر ثلاث الخمر والزنا والكذب فمرني ايهما اترك قال اترك الكذب فذهب عنه ثم اراد الزنا ففكر فقال آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألني ارأيت فان قلت نعم حدني وان قلت لا نقضت العهد فتركته ثم كذلك في الخمر فعاد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله اني تركت الجميع) فالكذب اصل كل فاحشة وجامع كل سوء وجالب لمقت الله عز وجل . وعن ابي بكر الصديق رضي الله عنه انه قال (لاايمان لمن لاامانة له) وعن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال (كل الخلال يطبع عليها المؤمن الا الخيانة والكذب) وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (ثلاث من كن فيه كان منافقاً من اذا وعد اخلف واذا حدث كذب واذا اؤتمن خان) وهل الكفر الا الكذب على الله عز وجل والله الحق وهو يحب الحق وبالحق قامت السموات والارض وما رأيت اخزى من كذاب وما هلكت الدول ولاهلكت الممالك ولاسفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الاستار بغير النمائم والكذب ولاأكدت العصاء والاحن المردية الاسمائم لايحظى صاحبها الا بالمقت والخزي والذل وان يطر منه الذي ينقل اليه فضلاً عن غيره بالعين التي ينظر بها من الكلب

والله عز وجل يقول ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ ويقول جل من قائل ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ فسمى النقل باسم الفسوق ويقول ﴿ ولاتطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد اثيم عتل بعد ذلك زنيم ﴾ والرسول عليه السلام يقول ﴿ لايدخل الجنة قتات ﴾ (١) ويقول ﴿ واياكم وقاتل الثلاثة ﴾ يعني الناقل والمنقول اليه والمنقول عنه والاحنف يقول ﴿ الثقة لايبلغ وحق لذي الوجهين الا يكون عند الله وجيهاً ﴾ وهو مايحمله من احسن الطائع واردها ولي الى ابي اسحق ابراهيم بن عيسى الثقفي الشاعر رحمه الله وقد نقل اليه رجل من اخواني عني كذباً على جهة الهزل وكان هذا الشاعر كثير الوهم فاعصه وصدقه وكلاهما كان لي صديقاً وما كان الناقل اليه من اهل هذه الصفة ولكنه كان المزاح جم الرعاية فكتبت الى ابي اسحاق وكان يقول بالخبر شعراً منه :

ولا تتبدل قالة قد سمعتها   تقال ولاتدري الصحيح عما تدري
كمن قد اراق الماء للآل ان بدا   فلاقى الردى في الافيح المهمه القفر

وكتبت الى الذي نقل عني شعراً منه :

ولا تزعما في الحد مزحاً كموضح   فساد علاج النفس طي صلاحها
ومن كان نقل الزور امضى سلاحه   كمثل الحبارى (٢) تتقي بسلاحها

وكان لي صديق مرة وكثر التدخيل بيني وبينه حتى كدح ذلك فيه واستبان في وجهه وفي لحظه وطبعت على التأني والتربص والمسالمة ما امكنت ووجدت بالاخماص سبيلاً الى معاودة المدة فكتبت اليه شعراً منه :

ولي في الذي أبدي مرام لو انها   بدت ما ادعى حسن الرماية وهرد

واقول مخاطباً لعبد الله بن يحيى الحريري الذي يحفظ لعمه الرسائل البليغة

---

(١) القت نم الحديث (٢) الحبارى طائر اكبر من الدجاج الاهلي

وكان طبع الكذب قد استولى عليه واستحوذ على عقله وألفه إلفة النفس الامل ويؤكد نقله وكذبه بالايمان المؤكدة المغلظة مجاهراً بها اكذب من السراب مستهتراً بالكذب مشغوفاً به لايزال يحدث من قد صح عنده انه لايصدقه فلا يزجره ذلك عن ان يحدث بالكذب

بدا كل ما كتمته بين محبر وحال ارتني قبح عقدك بينا
وكم حالة صارت بياناً بحالة كما تثبت الاحكام بالحلل الرنا

وفيه اقول قطعة منها :

أنم من المرآة في كل مادرى واقطع بين الناس من قضب الهند
أطل المنايا والزمان تعلما تحيله بالقطع بين ذوي الود

وفيه ايضاً اقول من قصيدة طويلة :

واكذب من حسن الظنون حديثه واقبح من دين وفقر ملازم
أوامر رب العرش اضيع عنده وأهون من شكوى الى غير راحم
تجمع فيه كل خزي وفضحة فلم تبق شتما في المقال لشاتم
وأثقل من عذل على غير قابل وابرد برداً من مدينة سالم
وأحرص من بين وهجر ورقبة حمى على حران حيران هائم

وليس من نبه عاقلا او نصح صديقاً او حفظ مسلماً او حكى عن فاسق او حدث عن عدو ما لم يكن يكذب ولا يكذب ولا تعمد الضغائن بالقالا وهل هلك الضعفاء وسقط من لا عقل له الا في قلة المعرفة بالناصح من النمام وهما صفتان متقاربتان في الظاهر متفاوتتان في الباطن احداهما داء والاخرى دواء والثاقب القريحة لايخفى عليه امرهما لكن العاقل من كان تنقيله غير مرضي في الديانة ونوى به التشتيت بين الاولياء والتضريب بين الاخوان والتحريش والتوبيش والترقيش فمن خاف إن سلك طريق النصيحة ان يقع في طريق النميمة ولم يثق لنفاذ تمييزه ومضاء تقديره فيما يرده من امور دنياه ومعاملة اهل زمانه فليحصل

ديه دليلاً له وسراجاً يستضيء به فحيثا سلك به سلك وحيثا اوقفه وقف (كعلا له بالنظر رعماً بالاصابة ضمان الفلج والخلاص (كذا) فشارع الشريعة وباعث الرسول عليه السلام ومرتب الاوامر والنواهي اعلم بطريق الحق وادرى بمواقف السلامة ومعمات النجاة من كل ناظر لنفسه رعمه وباحث بقياسه في ظنه

﴿ باب الوصل ﴾

ومن وجوه العشق الوصل وهو حظ رفيع ومرتبة سرية ودرجة عالية وسعد طالع بل هو الحياة المجددة والعيش السني والسرور الدائم ورحمة من الله عظيمة ولولا ان الدنيا دار ممر ومحنة وكدر والجنة دار جزاء وأمان من المكاره لقلنا ان وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه والفرح الذي لاشائبة فيه ولاحزن معه وكمال الاماني ومنتهى الاراجي ولقد جربت اللذات على تصرفها وادركت الحظوظ على اختلافها فما للدنو من السلطان ولا المال المستفاد ولاالوجود بعد العدم ولا الاوبة بعد طول الغيبة ولا الامن بعد الخوف ولا التروح على المال من الموقع في النفس ما للوصل لاسيما بعد طول الامتناع وحلول الهجر حتى يتأجج عليه الجوى ويتوقد لهيب الشوق وتتضرم نار الرجاة وما اضاف النبات بعد غب القطر ولا اشراق الازاهير بعد اقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج ولا خرير المياه المتخللة لافانين النوار ولا تأنق القصور البيض قد احدقت بها الرياض الخضر بأحسن من وصل حبيب قد رضيت اخلاقه وحمدت غرائزه وتقابلت في الحسن اوصافه وانه لمعجز السنة البلغاء ومقصر فيه بيان الفصحاء وعنده تطيش الالباب وتعزب الافهام وفي ذلك اقول ،

وسائل لي عما لي من العمر ... وقدرأى الشيب في الفودين والعذر
احتسبه ساعة لا شيء احسبه ... عمراً سواها بحكم العقل والنظر
فقال لي كيف ذا بينه لي فلقد ... اخبرتني اشنع الانباء والخبر

فقلت ان الي قلبي بها علق	قبلتها قبلة يوماً على خطر
فما اعد ولو طالت سني سوى	تلك السويعة بالتحقيق من عمري

ومن لذيذ معاني الوصل المواعيد وان للوعد المنتظر مكاناً لطيفاً من شغاف القلب وهو ينقسم قسمين احدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه وفيه اقول قطعة منها .

اسامر البدر لما ابطأت واري	في نوره من سنا اشراقها عوضا
فبت مشترطاً والود مختلطاً	والوصل منبسطاً والهجر منقبضا

والثاني انتظار الوعد من المحب ان يزور محبوبه وان لمبادي الوصل وأوائل الاسعاف لتولجاً على الفؤاد ليس لشيء من الاشياء واني لاعرف من كان ممتحناً بهوى في بعض المنازل المصاقبة فكان يصل متى شاء بلا مانع ولا سبيل الى غير النظر والمحادثة زماناً طويلاً ليلاً متى احب ونهاراً الى ان ساعدته الاقدار باجابة ومكنته باسعاد بعد يأسه لطول المدة ولعهدي به قد كاد ان يختلط عقله فرحاً وما كاد يتلاحق كلامه سروراً فقلت في ذلك :

برعة لو الى ربي دعوت بها	لكان ديني عند الله مغفورا
ولو دعوت بها اسد البلا لغدا	اضرارها عن جميع الناس مقصورا
فجاد بالأنس لي من بعد منعته	فاهتاج من لوعتي ما كان مغمورا
كشارب الماء كي يطفي الغليل به	فعص فانصاع (١) في الاحداث مقبورا

وقلت .

جرى الحب مني مجرى النفس	واعطيت عيني عنان الفرس
ولي سيد لم يزل نافراً	وربتما جاد لي في الخلس
فقابلته طالباً راحة	فراد الّبلا (٢) فقلبي اليبس

---

(١) انصاع رجع (٢) ألبلا . أيباً

وكان فؤادي كنت هشيم ... يبيس رمى فيه رام قبس

ومنها :

ويا جوهر الصين سحقاً فقد ... غنيت بياقوتة الاندلس

(خبر) واني لاعرف جارية اشتد وجدها بفتى من ابناء الرؤساء وهو لاعلم عنده وكثر غمها وطال أسفها الى ان ضنيت بحبه وهو بغرارة الصبي لايشعر ويمنعها من ابداء امرها اليه الحياء منه لانها كانت بكراً بحالتها مع الاجلال له عن الهجوم عليه بما لاتدري لعله توافقه فلما تمادى الامر وكان اليقين في النشأة شكت ذلك الى امرأة جزلة الرأي كانت تثق بها لتوليها تربيتها فقالت لها عرضي له بالشعر ففعلت المرة بعد المرة وهو لايأبه في كل هذا ولقد كان لقناً ذكياً لم يفطن ذلك فيميل الى تفتيش الكلام بوهمه الى أن عيل صبرها وضاق صدرها ولم تمسك نفسها في قعدة كانت لها معه في بعض الليالي منفردين ولقد كان يعلم الله عفيفاً متصاوناً بعيداً عن المعاصي فلما حان قيامها عنه بدرت اليه فقبلته في فمه ثم ولت في ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة وهي تتهادى في مشيها كما اقول في ابيات لي :

كأنها حين تخطو في تأودها ... قضيب نرجسة في الروض مياس

كأنما خلدها في قلب عاشقها ... ففيه من وقعها خفق ووسواس

كأنما مشيها مشي الحمامة لا ... كد يعاب ولا بطؤ به باس

فبهت وسقط في يده وفت في عضده ووجد في كبده وعلته وجمة فما هو الا ان غابت عنه ووقع في شرك الردى واشتعلت في قلبه النار وتصعدت انفاسه وترادفت اوجاله وكثر قلقه وطال أرقه فما غمض تلك الليلة عيناً وكان هذا بدء الحب بينهما دهراً الى ان جذت حبلتها يد النوى وان هذا لمن مصائد ابليس ودواعي الهوى التي لايقف لها احد الا من عصمه الله عز وجل ومن الناس من يقول ان دوام الوصل يودي بالحب وهذا هجين من القول

اىما دلك لأهل الملل بل كلما راد وصلًا راد اتصالا . وعني احبرك اني ماورويت قط من ماء الوصل ولارادني الا ظمأ وهدا حكم من تداوى برأيه وان رفه عنه سريعاً ولقد بلغت من التمكن عن احب ابعد الغايات التي لايجد الانسان وراءها مرمى فما وحدتني الا مستزيداً ولقد طال بي دلك فما احسست بسآمة ولا رهقتني فترة ولقد ضمني مجلس مع بعض من كنت احب فلم اجل خاطري في فن من فنون الوصل الا وحدته مقصراً عن مرادي وغير شاف وحـدي ولاقاض اقل لبانة من لباناتي ووحدتني كلما اردىت دنواً ارددت ىلوداً وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي فقلت في دلك المجلس :

وددت بأن القلب شق بمدية وأدخلت فيه ثم اطبق في صدري
فاصبحت فيـه لاتحلين غيره الى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ماحييت فان أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

وما في الدنيا حالة تعدل محبين اذا عدما الرقباء وأمنا الوشاة وسلما من البين ورغبا عن الهجر وبعدا عن الملل وفقدا العدال وتوافقـا في الاخلاق وتكافيا في المحبة واتاح الله لهما رزقاً داراً وعيشاً قاراً وزماناً هادياً وكان اجتماعهما على ما يرضي الرب من الحـال وطالت صحبتهما واتصلت الى وقت حلول الحمام الذي لامرد له ولابد منه هدا عطاء لم يحصل عليه احد وحاجة لم تقض لـكل طالب ولولا ان مع هده الحال الاشفاق من بغتات المقـادير المحكمة في غيب الله عز وجل من حلول فراق لم يكتسب واخترام منية في حال الشباب او ما اشبه دلك لقلت انها حال بعيدة من كل آفة وسليمة من كل داخلة ولقد رأيت من اجتمع له هدا كله الا انه كان دهي فيمن كان يحبه بشراسة الاخلاق ودالة على المحبة فـكانا لايتهنيان العيش ولا تطلع الشمس في يوم الا وكان بينهما خلاف فيه وكلاهما كان مطبوعاً بهدا الخلق اثقة كل

واحد منهما بمحبة صاحبه الى ان دبت النوى بينهما فتفرقا بالموت المرتب لهذا العالم وفي ذلك اقول :

كيف أذم النوى واظلمها ··· وكل اخلاق من احب نوى

قد كان يكفي هوى اضيق به ··· فكيف اذ حل بي نوى وهوى .

وروي عن زياد ابن ابي سفيان رحمه الله انه قال لجلسائه من انعم الناس عيشة قالوا امير المؤمنين فقال (واين مايلقى من قريش قيل فانت قال اين ما القى من الخوارج والثغور قيل فمن ايها الامير) قال رجل مسلم له زوجة مسلمة لهما كفاف من العيش قد رضيت به ورضي بها لايعرفنا ولانعرفه . وهل فيما وافق اعجاب المخلوقين وجلا القلوب واستمال الحواس واستهوى النفوس واستولى على الاهواء واقتطع الالباب واختلس العقول مستحسن يعدل اشفاق محب على محبوب ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً وانه لمن المناظر الحسنة الباعثة على الرقة الرائقة المعنى لاسيما ان كان هوى يتكتم به فلو رأيت المحبوب حين عرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمحبه وحيلته في الخروج مما وقع فيه بالاعتذار وتوجيهه الى غير وجهه وتحيله في استنباط معنى يقيمه عند جلسائه لرأيت عجباً ولذة مخفية لاتقاومها لذة ومارأيت اجلب للقلوب ولااغوص على حباتها ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل وان للمحبين في الوصل من الاعتذار ما اعجز اهل الاذهان الذكية والافكار القوية ولقد رأيت في بعض المرات هذا فقلت :

اذا مزجت الحق بالباطل ··· جوزت ماشئت على العاقل

وفيهما فرق صحيح له ··· علامة تبدو الى العاقل

كالتبر ان تمزج به فضة ··· جازت على كل فتى جاهل

وان تصادف صائغاً ماهراً ··· ميز بين المحض والحائل

واني لاعلم فتى وجارية كان يكلف كل واحد منهما بصاحبه فكانا يصطحبان

اذا حضرهما احد وبينهما السند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ويلتقي رأساهما وراء المسند . ويقبل كل واحد منهما صاحبه ولا يريان وكأنهما انما يتمددان من الكلال ولقد كان مانع من تكافيهما في المودة امراً عظيما الى ان كان الفتى المحب ربما استطال عليها وفي ذلك اقول :

ومن اعاجيب الزمان التي طمت على السامع والقائل
رغبة مركوب الى راكب وذلة المسؤول للسائل
وطول مأسور الى آسر وصولة المقتول للقاتل
ما إن سمعنا في الورى قبلها خضوع مأمول الى آمل
هل هاهنا وجه تراه سوى تواضع المفعول للفاعل

ولقد حدثتني امرأة اثق بها انها شاهدت فتى وجارية كان يجد كل واحد منهما بصاحبه فضل وجد قد اجتمعا في مكان على طرب وفي يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه فجرها جراً زائداً فقطع ابهامه قطعاً لطيفاً ظهر فيه دم وكان على الجارية غلالة قصب خرائنية لها قيمة فصرفت يدها وخرقتها واخرجت منها عصابة شد بها ابهامه واما هذا الفعل للمحب فقليل فيما يجب عليه وفرض لازم وشريعة مؤداة وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها

(خبر) وأنا ادركت بنت زكرياء بن يحيى التميمي المعروف بابن برطال وعمها كان قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن يحيى واخوه الوزير القائد الذي كان قتله غالب وقائدين له في الوقعة المشهورة بالثغور وهما مروان بن احمد ابن شهيد ويوسف بن سعيد العكي وكانت متزوجة بيحيى بن محمد ابن الوزير يحيى ابن اسحق فعاجلته المنايا وهما في اغض عيشهما وانضر سرورهما فبلغ من اسفها عليه ان ماتت معه في دثار واحد ليلة مات وجعلته آخر العهد به وبوصله ثم لم يفارقها الاسف بعده الى حين موتها وان للوصل المختلس

الذي يحاتل به الرقباء ويتحمط به من الحصر مثل الضحك المستور والتنحنحة وحولان الايدي والضغط بالاحساب والقرص باليد والرجل لموقعاً من النفس شهياً وفي ذلك اقول :

ان للوصل الخفي محلّاً   ليس للوصل المكين الجلي
لذة تمزجها بارتقاب   كمسير في خلال التقي

(خبر) ولقد حدثني ثقة من اخواني جليل من اهل البيوتات انه كان علق في صباه جارية كانت في بعض دور آله وكان ممنوعاً منها فهام عقله بها قال لي فتنزهنا يوماً الى بعض ضياعنا بالسهلة غربي قرطبة مع بعض اعمامي فتمشينا في البساتين وابعدنا عن المنازل وانبسطنا على الانهار الى ان غيمت السماء واقبل الغيث فلم يكن بالحضرة من الغطاء مايكفي الجميع قال فامر عمي بعض الاغطية فالقى علي وامرها بالاكتنان معي فظن بما شئت من التمكن على اعين الملأ وهم لايشعرون ويالك من جمع كخلاء واحتفال كانفراد قال لي فوالله لا نسيت ذلك اليوم ابداً ولعهدي به وهو يحدثني بهذا الحديث واعضاؤه كلها تضحك وهو يهتز فرحاً على بعد العهد وامتداد الزمان وفي ذلك اقول شعراً منه .

يضحك الروض والسحائب تبكي   كحبيب رآه صب معنى

(خبر) ومن بديع الوصل ما حدثني به بعض اخواني انه كان في بعض المنازل المصاقبة له هوى وكان في المنزلين موضع مطلع من احدهما على الآخر فكانت تقف له في ذلك الموضع وكان فيه بعض البعد فتسلم عليه ويدها ملفوفة في قميصها فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك فاجابته انه ربما أحس من امرنا شيء فوقف لك غيري فسلم عليك فرددت عليه فصح الظن فهذه علامة بيني وبينك فاذا رأيت يداً مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدي فلا تجاوب . وربما استحلي الوصال واتفقت القلوب حتى يقع التحلح في الوصال فلا يلتفت

الى لأئم ولا يستتر من حافظ ولا يبالي ساقل بل العدل حينئذ يعري وفي صفة الوصل اقول شعراً منه :

كم درت حول الحب حتى لقد حصلت فيه كحصول الفراش

ومنه :

تمشو الى الوصل دواعي الهوى كما سرى نحو سنا النار عاش

ومنه :

عللني بالوصل من سيدي كمثل تعليل الظماء العطاش

ومنه :

لاتوقف العين على غاية فالحسن فيه مستزيد وناش

واقول من قصيدة لي :

هل لقتيل الحب من وادي ام هل لعاني الحب من فادي
ام هل لدهري عودة نحوها كمثل يوم مر في الوادي
ظللت فيه سائحاً صادياً يا عجباً للسائح الصادي
صيت يا مولاي وحداً بما تنصرني الحاسد عوادي
كيف اهتدى الوجد الى عائب عن اعين الحاضر والبادي
مل مداواتي طبيي فقد يرحمني للسقم حسادي

(باب الهجر)

ومن آفات الحب ايضاً الهجر وهو على ضروب فاولها هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر وانه لاحلى من كل وصل ولولا ان ظاهر اللفظ وحكم التسمية يوجب ادخاله في هذا الباب لرغبت به عنه ولاحللته عن تسطيره فيه فحينئذ ترى الحبيب منحرفاً عن محبه مقبلاً بالحديث على غيره معرضاً بعرض لئلا ملحق ظنه او تسبق استرابته وترى المحب ايضاً كذلك ولكن طبعه له

جاذب ونفسه له صارفة بالرغم فتراه حينئذ منحرفاً كمقبل وساكتاً كناطق وناظراً الى جهة نفسه في غيرها والحاذق الفطن اذا كشف بوهمه عن باطن حديثهما علم ان الخافي غير البادي وما جهر به غير نفس الخبر وانه لمن اشاهد الحالة للعشق والمناظر المحركة للسواكن الباعثة للخواطر المهيجة للضمائر الحادثة للفتوة . ولي ابيات في شيء من هذا اوردتها وان كان فيها غير هذا المعنى على ماشرطنا منها :

يلوم ابي الناس جهلاً لطعمه　　كما عير الحوت النعامة بالصدى

ومنها :

وكم صاحب اكرمته غير طائع　　ولا مكره الا لامر تعمدا
وما كان ذاك البر الا لغيره　　كما نصبوا للطير بالحب مصيدا

واقول من قصيدة محتوية على ضروب من الحكم وفنون من الآداب الطبيعية

وسراء احشائي لمن انا مؤثر　　وسراء اسائي لمن اتحبب
فقد يشرب الصاب الكريه لعلة　　ويترك صفو الشهد وهو محبب
واعذل في اجهاد نفسي في الذي　　أريد واني فيه اشقى واتعب
هل اللؤلؤ المكنون والدر كله　　رأيت بغير الغوص في البحر يطلب
واصرف نفسي عن وجوه طباعها　　اذا في سواها صح ما انا ارغب
كما نسخ الله الشرائع قبلنا　　بما هو ادنى للصلاح واقرب
والقى سجايا كل خلق بمثلها　　وعت سجاياي الصحيح المهذب
كما صار لون الماء لون انائه　　وفي الاصل لون الماء ابيض معجب

ومنها :

اقمت دوى ودي مقام طبائعي　　حياتي بها والموت منهن يرهب

ومنها :

وما انا ممن تطبيه بشاشة　　ولا يقتضي مافي ضميري التحبب

أريد مماراً عند ذلك باطناً | وفي ظاهري اهل وسهل ومرحب
فاني رأيت الحرب يعلو اشتعالها | ومبدؤها في اول الامر ملعب
وللحية الرقشاء وشي ولونها | عجيب وتحت الوشي سم مركب
وإن فرند السيف اعجب منظراً | وفيه اذا هز الحمام المذرب
وأحمل ذل النفس عزة اهلها | اذا هي نالت ما بها فيه مذهب
فقد يضع الانسان في الترب وجهه | ليأتي غداً وهو المصون المقرب
فذل يسوق العز اجود للفتى | من العز يتلوه من الذل مركب
وكم مأكل اردت عواقب غبه | ورب طوى بالخصب آت ومعقب
وماذاق عز النفس من لا يذلها | ولا التذ طعم الروح من ليس يتعب
ورودك بعد الماء من بعد ظمأة | ألذ من العل المكين واعذب

ومنها :

وفي كل مخلوق تراه تفاضل | فرد طيباً ان لم يتح لك اطيب
ولا ترض ورد الريق الا ضرورة | اذا لم يكن في الارض حاشاه مشرب
ولا تقربن ملح المياه فانها | شجى والصدى بالحر اولى واوجب

ومنها :

فجد من جراها ماتيسر واقتنع | ولا تك مشغولا عن هو يطلب
فما لك شرط عندها لا ولا يد | ولا هي ان حصلت ام ولا اب

ومنها :

ولا تيأس مما ينال بحيلة | وان سدت فالامر يأبى ويصعب
ولا تأمن الاظلام فالصبح طالع | ولا تلتمس بالضوء فالشمس تغرب

ومنها :

ألح فان الماء يكدح في الصفا | اذا طال ما يأتي عليه ويذهب
وكثر ولا تفشل وقلل كثير ما | فعلت فشيء المرء جم ويحسب

فلو يتعدى المرء بالسم قاته وقام له منه عداء مجرب

ثم هجر يوجبه التذلل وهو ألذ من كثير الوصال ولذلك لا يكون الا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه واستحكام البصيرة في صحة عقده فحينئذ يظهر المحبوب هجراناً ليرى صبر محبه وذلك لئلا يصفو الدهر البتة وليأسف المحب ان كان مفرط العشق عند ذلك لا لما حل لكن مخافة ان يترقى الامر الى ماهو اجل فيكون ذلك الهجر سبباً الى غيره او خوفاً من آفة حادث ملل ولقد عرض لي في الصبى هجر مع بعض من كنت آلف على هذه الصفة وهو لايلبث ان يضمحل ثم يعود فلما كثر ذلك قلت على سبيل المزاح شعراً بديهياً ختمت كل بيت منه بقسيم من اول قصيدة طرفة بن العبد المعلقة وهي التي قرأناها مشروحة على ابى سعيد الفتى الجعفري عن ابى بكر المقريء عن ابي جعفر النحاس رحمهم الله في المسجد الجامع بقرطبة وهي :

تذكرت وداً للحبيب كأنه لخولة اطلال ببرقة ثهمد
وعهدي بعهد كان لي منه ثابت يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقفت به لاموقناً برجوعه ولا آيساً ابكي وابكي الى الغد
الى ان أطال الناس عذلي واكثروا يقولون لاتهلك اسى وتجلد
كأن فنون السخط ممن احبه خلايا سفين بالنواصف من دد
كأن انقلاب الهجر والوصل مركب يجور به الملاح طوراً ويهتدي
فوقت رضى يتلوه وقت تسخط كما قسم الترب المفائل (١) باليد
ويبسم نحوي وهو غضبان معرض مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد

---

(١) فئال ككتاب لعبة للصبيان يخبؤن الشيء في التراب ثم يقتسمونه ويقولون في ايهما هو واللاعب بها مفائل

ثم يجري يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب وهذا فيه بعض الشدة لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى يعدل ما مضى فان لرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لاتعدلها لذة وموقعاً من الروح لايفوقه شيء من اسباب الدنيا وهل شاهد مشاهد او رأت عين او قام في فكر الذ واشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب وبعد عنه كل بغيض وغاب عنه كل واش واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحب منهما وطال ذلك قليلا وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثم مانع من الاطالة للحديث فابتدأ المحب في الاعتذار والخضوع والتذلل والادلة بحجته الواضحة من الادلال والادلال والتدمم عما سلف فطوراً يدلي ببراءته وطوراً يرد بالعفو ويستدعي المغفرة ويقر بالذنب ولاذنب له والمحبوب في كل ذلك ناظر الى الارض يسارقه اللحظ الخفي وربما ادامه فيه ثم يبسم مخفياً لتبسمه وذلك علامة الرضى ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر وقبل القول وامتحت ذنوب النقل وذهب آثار السخط ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور ولو كان فكيف ولاذنب وختما امرهما بالوصل الممكن وسقوط العتاب والاسعاد وتفرقاً على هذا . هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحديده الالسنة ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء وانبساط مدبري الدول فما رأيت اشد تبجحاً ولااعظم سروراً بما هو فيه من محب ايقن ان قلب محبوبه عنده ووثق بميله اليه وصحة مودته له وحضرت مقام المعتذرين بين ايدي السلاطين ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين فما رأيت اذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء ولقد امتحنت الامرين وكنت في الحالة الاولى اشد من الحديد وانفذ من السيف لااجيب الى الدنية ولا اساعد على الخضوع وفي الثانية اذل من الرداء والين من القطن ابادر الى اقصى غايات التذلل لونفع واغتنم

فرصة الخضوع لو نجم واتحلل ملساني واغوص على دقائق المعاني ببياني وافنن القول فنوناً واتصدى لكل مايوجب الترضي

والتجني بعض عوارض الهجران وهو يقع في اول الحب وآخره فهو في اوله علامة لصحة المحبة وفي آخره علامة لفتورها وباب للسلو

(خبر) واذكر في مثل هذا اني كنت مختاراً في بعض الايام بقرطبة في مقبرة باب عامر في لمة (١) من الطلاب واصحاب الحديث ونحن نريد مجلس الشيخ ابي القاسم عبد الرحمن بن ابي يزيد المصري بالرصافة استاذي رضي الله عنه ومعنا ابو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوي من اهل سبتة وكان شاعراً مفلقاً وهو ينشد لنفسه في صفة متجن معهود ابياتاً له منها :

سريع الى ظهر الطريق وانه الى نقض اسباب المودة يسرع(٢)
يطول علينا ان نرقع وده اذا كان في ترقيعه يتقطع

فوافق انشاد البيت الاول من هاذين البيتين خطور ابي الحسين بن علي الفاسي رحمه الله وهو يؤم ايضاً مجلس بن ابي يزيد فسمعه فتبسم رحمه الله نحونا وطوانا ماشياً وهو يقول بل الى عقد المودة ان شاء الله فهو اولى هذا على جد ابي الحسين رحمه الله وفضله وتقربه وبراءته ونسكه وزهده وعلمه فقلت في ذلك :

دع عنك نقض مودتي متعمداً واعقد حبال وصالنا يا ظالم
ولترجعن أردته او لم ترد كرهاً لما قال الفقيه العالم

ويقع فيه الهجر والعتاب ولعمري ان فيه اذا كان قليلاً للذة واما اذا تفاقم فهو فأل غير محمود وأمارة وبيئة المصدر وعلامة سوء وهي بجملة الامر مطية الهجران ورائد الصريمة ونتيجة التجني وعنوان الثقل ورسول الانفصال

---

(١) اللمة بالضم : الاصحاب (٢) لعل الاصل أسرع

وداعية القلى ومقدمة الصد وانما يستحسن اذا لطف وكان اصله الاشفاق وفي ذلك اقول :

اطلك سد عتـك ان تجودا ٭ بما منه عتبت وان تزيدا
فـكم يوم رأينا فيه صحواً ٭ وأسمعـنا مآخره الرعودا
وعاد الصحو بعد كما علمنا ٭ وانت كذاك نرجو ان تعودا

وكان سبب قولي هذه الابيات عتاب وقع في يوم هذه صفته من ايام الربيع فقلتها في ذلك الوقت وكان لي في بعض الزمن صديقان وكانا اخوين فغابا في سفر ثم قدما وقد أصابني رمد فتأخرا عن عيادتي فكتبت اليهما والخاطبة للاكبر منهما شعراً منه :

وكنت اعدد ايضاً على ٭ أخيك بمؤلمـة السامع
ولـكن اذا الدهر غطى ذكا ٭ فما الظن بالقمر الطالع

ثم نحن نوجه الوشاة وقد تقدم القول فيهم وفيما يتولد من دبيب عقاربهم وربما كان سبباً المقاطعة البتة

ثم نحن الملل والملل من الاخلاق المطبوعة في الانسان واحرى لمن دهي به الا يصفو له صديق ولايصح له اخاء ولايثبت على عهد ولايصبر على الف ولا تطول مساعدته لمحب ولا يعتقد منه ود ولا بغض وأولى الامور بالناس ان لا يعروه منهم وان يفروا عن صحبته ولقائه فلن يظفروا (١) منه بطائل ولذلك ابعدنا هذه الصفة عن المحبين وجعلناها في المحبوبين فهم بالجملة اهل التجني والتظني والتعرض للمقاطعة واما من تزيا باسم الحب وهو ملول فليس منهم وحقه ان يهرج مذاقه وينفى عن اهل هذه الصفة ولا يدخل في جملتهم وما رأيت قط هذه الصفة اشد تغلباً منها على ابى عامر محمد بن عامر

---

(١) في الاصل يخلوا

رحمه الله فلو وصف لي واصف بعض ما علمته منه لما صدقته واهل هذا الطبع اسرع الخلق محبة واقلهم صبرا على المحبوب وعلى المكروه والصد (١) وانقلابهم على الود على قدر تسرعهم اليه فلا تثق بملول ولا تشغل به نفسك ولا تعنها بالرجاء في وفائه فان دفعت الى محبته ضرورة فعده ابن ساعته واستأنفه كل حين من احيانه بحسب ماتراه من تلونه وقابله بما يشاكله ولقد كان ابو عامر المحدث عنه يرى الجارية فلا يصبر عنها ويحيق به من الاغتمام والهم مايكاد ان يأتي عليه حتى يملكها ولو حال دون ذلك شوك القتاد فاذا ايقن بتصيرها (٢) اليه عادت المحبة نفاراً وذلك الانس شروداً والقلق اليها قلقاً منها ونزاعه نحوها نزاعاً عنها فيبيعها بأوكس الاثمان هذا كان دأبه حتى اتلف فيما ذكرنا من عشرات الوف الدنانير عدداً عظيما وكان رحمه الله مع هذا من اهل الادب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقد مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض واما حسن وجهه وكمال صورته فشيء تقف الحدود عنه وتكل الاوهام عن وصف اقله ولايتعاطى احد وصفه ولقد كانت الشوارع تخلو من السيارة ويتعمدون الخطور على باب داره في الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا في الجانب الشرقي بقرطبة الى الدرب المتصل بقصر الزاهرة وفي هذا الدرب كانت داره رحمه الله ملاصقة لنا لالشيء الا للنظر اليه . ولقد مات من محبته جوار كن علقن اوهامهن به ورثين له فخانهن مما املنه منه فصرن رهائن البلى وقتلتهن الوحدة . وانا اعرف جارية منهن كانت تسمى عفراء عهدي بها لاتستتر بمحبته حيث ما جلست ولاتجف دموعها وكانت قد تصيرت من داره الى البركات الخباز صاحب الفتيان . ولقد كان رحمه الله يخبرني عن

(١) لعل الصواب : وعلى المكروه والصد (٢) لم يرد في اللغة تصير مشدداً فلعل الاصل بتصيرها

نفسه انه يملّ اسمه فضلاً عن غير ذلك واما اخوانه فانه تستبدل بهم في عمره على قصره مراراً وكان لايثبت على زي واحد كأبي براقش حيناً يكون في ملابس الملوك وحيناً في ملابس النساك فيجب على من امتحن بمخالطة من هذه صفته على اي وجه كان ألايستفرغ عامة جهده في محبته وان يقيم اليأس من دوامه حصناً لنفسه فاذا لاحت له مخايل الملل قاطعه اياماً حتى ينشط باله ويبعد به عنه ثم يعاوده فربما دامت المودة مع هذا وفي ذلك اقول :

لاترجون ملولا ليس الملول بذي عده
ود الملول فدعه عارية مسترده

ومن الهجر ضرب يكون متوليه المحب وذلك عندما يرى من جفاء محبوبه والميل عنه الى غيره او لثقيل يلازمه فيرى الموت ويتجرع غصص الأسى والمض على نقيف (١) الحنظل أهون من رؤية ما يكره فيقطع وكبده تتقطع وفي ذلك اقول :

هجرت من اهواه لاعن قلى يا عجباً للعاشق الهاجر
لكن عيني لم تطق نظرة الى محيا الرشأ الغادر
فالموت احلى مطعماً من هوى يباح للوارد والصادر
وفي الفؤاد النار مذكية فاعجب لصب جزع صابر
وقد اباح الله في دينه تقية المأسور للاسر
وقد احل الكفر خوف الردى حتى ترى المؤمن كالكافر

(خبر) ومن عجيب مايكون فيها وشنيعه اني اعرف من هام قلبه وتناء عنه مالكه فقاسى الوجد زمناً طويلاً ثم سمحت له الايام بساعة عجيبة من الوصل

(١) في الاصل ثقيف ، ولعل الاصح نقيف بمعنى منقوف من نقف الحنظل اذا شقه عن حبه كما في القاموس

أشرف بها على طلوع أمله حتى لم يكن بينه وبين غاية رجائه الا كهؤلاء عاد الهجر والبعد الى اكثر ماكان قبل فقلت في ذلك :

كانت الى دهري لي حاجة مقرونة في البعد بالمشتري
ساقها باللطف حتى اذا كانت من القرب على محجر
أبعدها عني فعادت كأن لم تبد للعين ولم تظهر

وقلت :

دنا أملي حتى مددت لأخذه يداً فاتنى نحو المجرة راحلا
فاصبحت لاارجو وقد كنت موقناً وأضحى مع الشعرى وقد كان حاصلا
وقد كنت محسوداً فاصبحت حاسداً وقد كنت مأمولا فاصبحت آملا
كذا الدهر في كراته وانتقاله فلا يأمن الدهر من كان عاقلا

ثم هجر القلى وهنا ضلت الاساطير وهدت الحيل وعظم البلاء وهو الذي حلى العقول دواهل فمن دهي بهذه الداهية فليتصد لمحبوب محبوبه وليتعمد مايعرف انه يستحسنه ويجب ان يجتنب مايدري انه يكرهه فربما عطفه ذلك عليه ان كان المحبوب ممن يدري قدر الموافقة والرغبة فيه واما من لم يعلم قدر هذا فلا طمع في استصرافه بل حسناتك عنده ذنوب فان لم يقدر المرء على استصرافه فليتعمد السلوان وليحاسب نفسه عما هو فيه من البلاء والحرمان ويسعى في نيل رغبته على اي وجه أمكنه ولقد رأيت من هذه صفته وفي ذلك اقول قطعة اولها .

ذهبت عني لو ادفع الموت دونه لقال اذاً ياليتني في المقابر

ومنها :

ولا ذنب لي اذ صرت احدو ركائبي الى الورد والدنيا تسيء مصادري
وماذا على الشمس المنيرة بالضحى اذا قصرت عنها ضعاف البصائر

واقول :

ما أقبح الهجر بعد وصل … واحسن الوصل بعد هجر
كالوفر تحويه بعد فقر … والفقر يأتيك بعد وفر

واقول :

معهود اخلاقك فسان … والدهر فيك اليوم صنفان
فانك الصنفان فيما مضى … وكان للصنفان يومان
يوم نعيم فيه سعد الورى … ويوم بأساء وعدوان
فيوم سماك لغيري ويو … مي منك ذو بؤس وهجران
اليس حتى لك مستأهلا … لان تجاريه باحسان

واقول قطعة منها :

يا من جميع الحسن منتظم … فيه كنظم الدر في العقد
مابال حتى منك يطرقني … قصداً ووجهك طالع السعد

واقول قصيدة اولها :

أساعة توديعك ام ساعة الحشر … وليلة بيني منك ام ليلة النشر
وهجرك تعذيب الموحد ينقضي … ويرجو التلاقي ام عذاب ذوي الكفر

ومنها

سقى الله اياماً مضت ولياليا … تحاكي لنا ليلوم العص في النشر
فاوراقه الايام حسناً وبهجة … واوسطه الليل المقصر للعمر
لهونا بها في غمرة وتألف … تمر فلا تدري وتأتي فلا تدري
فاعتنا منه زمان كأنه … ولاشك حسن العقد اعقب بالغدر

ومنها :

فلا تيأسي يا نفس عل زماننا … يعود بوجه مقبل غير مدبر
كما صرف الرحمن ملك امية … اليهم ولودي بالتحمل والصبر

وفي هذه القصيدة امدح ابا بكر هشام بن محمد اخا امير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى رحمه الله :

فأقول :

اليس يحيط الروح فينا بكل ما   دنا وتناءى وهو في محبس الصدر
كذا الدهر جسم وهو في الدهر روحه   محيط بما فيه وان شئت فاستقر(١)

ومنها :

إباؤتها تهدى اليه ومنة   تملها منهم يقاوم بالشكر
كذا كل نهر في البلاد وان طمت   غوارته يصب في لجج البحر

﴿ باب الوفاء ﴾

ومن حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الاخلاق في الحب وغيره الوفاء وانه لمن اقوى الدلائل واوضح البراهين على طيب الاصل وشرف العنصر وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات وفي ذلك اقول قطعة منها

أعمال كل امرء تنبي بعنصره   والعين تغنيك عن ان تطلب الاثرا

ومنها :

وهل ترى قط دفلى انبتت عنباً   اوتدخر النحل في اوكارها الصبرا

واول مراتب الوفاء ان يفي الانسان لمن يفي له وهذا فرض لازم وحق واجب على المحب والمحبوب لا يحول عنه الا خبيث المحتد لا خلاق له ولا خير عنده ولولا ان رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام في اخلاق الانسان(٢) وصفاته المطبوعة والتطبع بها وما يريد من المطبوع بالتطبع وما يضمحل من

---

(١) في الاصل : فاستبرى ولا معنى له فامل الصواب : فاستقر امر من الاستقراء (٢) في الاصل : النساء

التطبع عدم الطبع لزدت في هذا المكان مايجب ان يوضع في مثله ولكنا اننا قصدنا التكلم فيا رغبته من امر الحب فقط وهذا امر كان يطول جداً اذ الكلام فيه يتفنن كثيراً

(خبر) ومن ارفع (١) ماشاهدته من الوفاء في هذا المعنى واهوله شأناً قصة رأيتها عياناً وهو اني اعرف من رضي بقطيعة محبوبه واعز الناس عليه ومن كان الموت عنده احلى من هجر ساعة في حب طيه لسر اودعه والتزم محبوبه يميناً غليظة الا يكلمه ابداً ولايكون بينهما خبر او يفصح اليه ذلك السر على ان صاحب ذلك السر كان غائباً فابى من ذلك وتمادى هو على كتمانه والثاني على هجرانه الى ان فرقت بينهما الايام

ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غدر وهي للمحب دون المحبوب وليس للمحبوب هاهنا طريق ولا يلزمه ذلك وهي خطة لا يطيقها الا جلد قوي واسع الصدر حر النفس عظيم الحلم جليل الصبر حصيف العقل (٢) ماجد الخلق سالم النية ومن قابل الغدر بمثله فليس بمستأهل للملامة ولكن الحال التي قدمنا تفوقها جداً وتفوتها بعداً . وغاية الوفاء في هذه الحال ترك مكافاة الاذى بمثله والكف عن سيء المعارضة بالفعل والقول والتأني في جر حبل الصحبة ما امكن ورجيت الالفة وطمع في الرجعة ولاحت للعودة ادنى مخيلة وشيمت منها (٣) اقل بارقة او توجس منها ايسر علامة فاذا وقع اليأس واستحكم الغيظ حينئذ والسلامة من عرك والامن من ضرك والنجاة من اذاك وان يكون ذكر ماسلف مانعاً من شفاء الغيظ فيا وقع ورعي الاذمة حق وكيد على اهل العقول والحنين الى مامضى والاسى ماقد فرغ منه وفنيت مدته اثبت الدلائل على

(١) في الاصل : اشنع ، وماصححناه اكثر تلاؤماً مع قوله سابقاً « واول مراتب الوفاء » (٢) في الاصل : حصيف العقدة (٣) في الاصل : بها

صحة الوفاء وهذه الصفة حسنة جداً وواجب استعمالها في كل وجه من وجوه معاملات الناس فيما بينهم على اي حال كانت

(خبر) ولمهدي رجل من صفوة اخواني قد علق بجارية فتأكد الود بينهما ثم غدرت بعهده ونقضت وده وشاع خبرهما فوجد لذلك وجداً شديداً .

(خبر) وكان لي مرة صديق ففسدت بينه بعد وكيد مودة لايكفر مثلها وكان (١) علم كل واحد منا سر صاحبه وسقطت المؤونة فلما تغير علي افشى كل ما اطلع لي عليه مما (٢) كنت اطلعت منه على اضعافه ثم اتصل به ان قوله في قد بلغني فجزع لذلك وخشي ان اقارضه على قبيح فعله وبلغني ذلك فكتبت اليه شعراً أؤنسه فيه وأعلمه اني لا اقارضه

(خبر) ومما يدخل في هذا الدرج وان كان ليس منه ولاهذا الفصل المتقدم من حسن الرسالة والباب ولكنه شبيه له على ماقد ذكرنا وشرطنا وذلك ان محمد بن وليد بن مكسير الكاتب كان متصلاً بي ومنقطعاً الي ايام وزارة ابي رحمة الله عليه فلما وقع بقرطبة ما وقع وتغيرت أحوال خرج الى بعض النواحي فاتصل بصاحبها فعرض جاهه وحدثت له وجاهة وحال حسنة فحللت انا تلك الناحية في بعض رحلتي فلم يوفني حقي بل ثقل عليه مكاني وأساء معاملتي وصحبتي وكلفته في خلال ذلك حاجة لم يقم فيها ولا قعد واشتغل عنها بما ليس في مثله شغل فكتبت اليه شعراً اعاتبه فيه بحاوي مستعتباً وعلى ذلك فما كلفته حاجة بعدها ومما لي في هذا المعنى وليس من جنس الباب ولكنه يشبهه أبياتاً قلتها منها :

وليس يحمد كتمان لمكتتم لكن كتمك ما افشاه مفشيه

---

(١) في الاصل . وان علم (٢) في الاصل : ما

كالجود بالوفر اسى مايكون اذا قل الوجود له او ضن معطيه

ثم مرتبة ثالثة وهي الوفاء مع اليأس البات وبعد حلول المنايا وفجاءات الموت وان الوفاء في هذه الحالة لاجل واحسن منه في الحياة ومع رجاء اللقاء

(خبر) ولقد حدثتني امرأة اثق بها أنها رأت في دار محمد بن احمد بن وهب المعروف بابن الركيزة من ولد بدر الداخل مع الامام عبد الرحمن بن معاوية رضي الله عنه جارية رائعة جميلة كان لها مولى ففاجأته المنية فبيعت في تركته فأبت ان ترضى بالرجال بعده وما جامعها رجل الى ان لقيت الله عز وجل وكانت تحسن الغناء فانكرت علمها به ورضيت بالخدمة والخروج عن جملة المتخذات للنسل واللذة والحال الحسنة وفاء منها لمن قد دثر وواراته الارض والتأمت عليه الصفائح ولقد رامها سيدها المذكور ان يضمها الى فراشه مع سائر جواريه ويخرجها مما هي فيه فأبت فضربها غير مرة وأوقع بها الادب فصبرت على ذلك كله فاقامت على امتناعها وان هذا من الوفاء غريب جداً واعلم ان الوفاء على المحب اوجب منه على المحبوب وشرطه له الزم لان المحب هو البادي باللصوق والتعرض لعقد الاذمة (١) والقاصد لتأكيد المودة والمستدعي صحة العشرة والاول في عدد طلاب (٢) الاصفياء والسابق في ابتغاء اللذة باكتساب الخلة والمقيد نفسه بزمام المحبة قد عقلها بأوثق عقال وخطمها باشد خطام فمن قسره على هذا كله ان لم يرد إتمامه ؟ ومن اجبره على استجلاب الثقة ان لم ينو ختمها بالوفاء لمن اراده عليها ؟ والمحبوب انما هو مجلوب اليه ومقصود نحوه ومخير في القبول او الترك فان قبل فغاية الرجاء وان ابى فغير مستحق للذم وليس التعرض للوصل والالحاح فيه والتأني لكل مايستجلب به من الموافقة وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء في شيء فحظ نفسه اراد

---

(١) الذمام : الحق . الحرمة والجمع أذمه (٢) في الاصل : طالب

الطالب ، وفي سروره سعى ، وله احتطب ، والحب يدعوه ويحدوه على دلك شاء او ابى وانما يحمد الوفاء ممن يقدر على تركه

وللوفاء شروط على المحبين لازمة . فأولها ان يحفظ عهد محبوبه ويرعى غيبته ويستوي علانيته وسريرته ويطوي شره وينشر خيره ويغطي على عيوبه ويحسن افعاله ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ويرضى بما حمله ولايكثر عليه بما ينفر منه وألا يكون طلعة ثؤوباً ولاملة طروقاً وعلى المحبوب (١) ان ساواه في المحبة مثل ذلك وان كان دونه فيها فليس للمحب ان يكلفه الصعود الى مرتبته ولاله الاستشاطة عليه بان يسومه الاستواء معه في درجته ويحسبه منه حينئذ كتمان خبره والا يقابله بما يكره ولا يجبهه به وان كانت الثالثة وهي السلامة مما ياتي بالجملة فليقنع بما وجد وليأخذ من الامر ما استدف (٢) ولا يطلب شرطاً ولا يقترح حقداً وانما له ماسنح بحده او ما حان بكده واعلم انه لايستبين قبح الفعل لاهله ولدلك يتضاعف قبحه عند من ليس من دونه . ولا اقول قولي هدا ممتدحاً ولكن آخـداً بادب الله عز وجل ﴿ واما بنعمة ربك فحدث ﴾ لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لـكل من يمت الي بلقية واحدة ووهبني من المحافظة لمن يتذمم مني ولو بمحادثته ساعة حظـاً (٣) ؟ انا له شاكر وحامد ومنه مستمد ومستزيد وما شيء اثقل علي من الغـدر ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة في اضرار من بيني وبينه اقل ذمام وان عظمت جريرته وكثرت الي ذنوبه ولقد دهمني من هذا غير قليل فما جزيت على السوءى الا بالحسنى والحمد لله على ذلك كـثيراً وبالوفاء افتخر في كلمة طويلة ذكرت فيها مامضى من النكبات ودهمنا من الحل والترحال والتجول في الآفاق اولها :

---

(١) في الاصل : المحب (٢) وجد ما استدف لك اي ما امكن وتسهل .

(٣) في الاصل حظاً

ولي فولى حميل الصبر يتبعه — وصرح الدمع ماتخفيه أضلعه
جسم ملول وقلب آلف فاذا — حل الفراق عليه فهو موجعه
لم تستقر به دار ولا وطن — ولا تدفأ منه قط مضجعه
كأنما أصبح من زهو السحاب لها — تزال ريح الى الآفاق تدفعه
كأنما هو توحيد تضيق به — نفس اسكفور فتأبى حين تودعه
او كوكب قاطع في الافق منتقل — فالسير يعرفه حيناً ويطلعه
أطلبه لو حرته او تساعده — ألقت عليه اهمال الدمع يتبعه

وبالوفاء ايضاً افتخر في قصيدة لي طويلة اوردتها وان كان اكثرها ليس من جنس الكتاب فكان سبب قولي لها ان قوماً من مخالفي شرقوا بي وأساءوا العتب في وجهي وقذفوني بأني اعضد الباطل بحجتي عجزاً منهم عن مقاومة ما اوردته من نصر الحق واهله وحسداً لي فقلت وخاطبت بقصيدتي بعض اخواني وكان ذا فهم منها :

وجدني عصا موسى وهات جميعهم — ولو انهم حيات ضال نضانض

ومنها :

يريغون في عيبي عجائب جمة — وقد يتحمى الليث والليث رابض

ومنها :

ويرجون ما لا يبلغون كمثل ما — يرجي محالا في الامام الروافض

ومنها :

ولو جلدي في كل قلب ومهجة — لما أثرت فيها العيون المرائض
أنت عن دنيء الوصف ضربة لازم — كما انت الفعل الحروف الخوافض

ومنها :

ورأيي له في كل ماغاب مسلك — كما تسلك الجسم العروق النوابض
يبين مدب النمل في غير مشكل — ويستر عنهم للغيوب المرائض

﴿ باب الغدر ﴾

وكما ان الوفاء من سري النعوت ونبيل الصفات فكذلك الغدر من ذميمها ومكروهها وانما يسمى غدراً من البادي به واما المقارض بالغدر على مثله وان استوى معه في حقيقة الفعل فليس بغدر ولا هو معيباً بذلك والله عز وجل يقول ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ وقد علمنا ان الثانية ليست بسيئة ولكن لما جانست الاولى في الشبه اوقع عليها مثل اسمها وسيأتي هذا مفسراً في باب السلو ان شاء الله ولكثرة وجود الغدر في المحبوب استغرب الوفاء منه فصار قليله الواقع منهم يقاوم الكثير الموجود في سواهم وفي ذلك اقول :

قليل وفاء من يهوى يجل   وعظم وفاء من يهوى يقل
فبادرة الجبان اجل مما   يجيء به الشجاع المستقل

ومن قبيح الغدر ان يكون للمحب سفير الى محبوبه يستريح اليه باسراره فيسعى حتى يقلبه (١) الى نفسه ويستأثر به دونه وفيه اقول :

اقمت سفيراً قاصداً في مطالبي   ووثقت به جهلا فصرت بيسا
وحل عرى ودي وانبت وده   واسعد عني كل ماكان ممكنا
فصرت شهيداً بعدما كنت مشهداً   واصبحت ضيفاً بعدما كان ضيفنا

(خبر) ولقد حدثني القاضي يونس بن عبد الله قال أذكر في الصبى جارية في بعض السدد يهواها فتى من اهل الادب من ابناء الملوك وتهواه ويتراسلان وكان السفير بينهما والرسول بكتبهما فتى من اترابه كان يصل اليها فلما عرضت الجارية للبيع اراد الذي كان يحبها ابتياعها فبدر الذي كان رسولا فاشتراها فدخل عليها يوماً فوجدها قد فتحت درجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها فأتى

---

(١) في الاصل : يقبله

اليها وحمل يفتش الدرج فخرج اليه كتاب من ذلك الفتى الذي كان يهواها مصححاً بالعالية معنوناً مكرماً فغضب وقال من اين هذا يافاسقة قالت انت سقته الي فقال لعله حدث عند ذاك الحين فقالت ماهو الا من قديم تلك التي تعرف قال فكأنما القمته حجراً فسقط في يديه وسكت

﴿ باب البين ﴾

وقد علمنا انه لابد لكل مجتمع من افتراق ولكل دان من تناء وتلك عادة الله في العباد والبلاد حتى يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين وماشيء من دواهي الدنيا يعدل الافتراق ، ولوسالت الارواح به فضلاً عن الدموع كان قليلا . وسمع بعض الحكماء قائلاً يقول : الفراق اخو الموت ، فقال : بل الموت اخو الفراق (١) والبين ينقسم اقساماً :

فأولها مدة يوقن بانصرامها وبالعودة عن قريب وانه لشجى في القلب ، وغصة في الحلق لاتبرأ الا بالرجعة ، وانا اعلم من كان يغيب من يحب عن نصره يوماً واحداً فيعتريه من الهلع والجزع وشغل البال وترادف الكرب مايكاد يأتي عليه

ثم بين منع من اللقاء وتحظير على المحبوب من ان يراه محبه فهذا ولو كان من تحبه معك في دار واحدة فهو بين لأنه نأى عنك وان هذا ليولد من الحزن والاسف غير قليل ، ولقد جرّبناه فكان مراً وفي ذلك اقول :

أرى دارها في كل حين وساعة ولكن من في الدار عني مغيب

---

(١) هذا الاسلوب يشبه ما يروى عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها انها قالت . لولا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : السفر قطعة من العذاب ، لقلت : العذاب قطعة من السفر

وهل نافعي قرب الديار واهلها   على وصلهم مني رقيب مرقب
فيالك جار الحب اسمع حسه   واعلم ان العين أدنى واقرب (١)
كصاد يرى ماء الطوي بعينه   وليس اليه من سبيل يسبب
كذلك من في اللحد عنك مغيب   وما دونه الا الصفيح المنصب

واقول من قصيدة مطولة :

متى تشتفي نفس اضر بها الوجد   وتصقب دار قد طوى اهلها البعد
وعهدي بهند وهي جارة بيتنا   واقرب من هند لطالبها الهند
الى ان في قرب الديار لراحة   كما يمسك الظمآن ان يدنو الورد

ثم بين يتعمده المحب صداً عن قول الوشاة وخوفاً ان يكون لقاؤه سبباً الى منع اللقاء وذريعة الى ان يفشو الكلام فيقع الحجاب الغليظ

ثم بين يولده المحب لبعض مايدعوه الى ذلك من آفات الزمان وعذره مقبول او مطرح على قدر الحافز له الى الرحيل

(خبر) ولعهدي بصديق لي داره المرية فعنت له حوائج الى شاطبة فقصدها وكان نازلاً بها في منزلي مدة اقامته بها وكان له بالمرية علاقة هي اكبر همه وادهى غمه وكان يؤمل تنبيته (٢) وفراغ اسبابه وان يوشك الرجعة ويسرع الاوبة فلم يكن الاحين لطيف بعد احتلاله عندي حتى حيش الموفق ابو الحسن مجاهد صاحب الجزائر الجيوش وقرب العساكر ونابذ خيران صاحب المرية وعزم على استئصاله فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب وتحوميت السبل واحتوز البحر بالاساطيل فتضاعف كربه اذ لم يجد الى الانصراف سبيلاً البتة وكاد يطفأ أسفاً

---

(١) هذا المعنى يرمي الى قول المعري :

فيا دارها بالخيف ان مزارها   قريب ولكن دون ذلك اهوال

(٢) التنبيت · التزويد والتجهيز مأخوذ من البتات كسحاب وهو الزاد ومتاع البيت

وصار لايأنس بغير الوحدة ولا يلجأ الا الى الزفير والوجوم ولعمري لقد كان ممن لم اقدر قط فيه ان قلبه يدعن للود ولا شراسة طبعه تجيب الى الهوى واذكر اني دخلت قرطبة بعد رحيلي عنها ثم خرجت منصرفاً عنها فصحبني الطريق مع رجل من الكتاب قد رحل لامر مهم وتخلف سكن(١) له فسكان يرتمض لذلك واني لاعلم من علق بهوى له وكان في حال شظف وكانت له في الارض مذاهب واسعة ومناديح رحبة ووجوه متصرف كثيرة فهان عليه ذلك وآثر الاقامة مع من يحب وفي ذلك اقول شعراً منه :

لك في البلاد منادح معلومة والسيف فقل(٢)او يبين قرابه

ثم بين رحيل وتباعد ديار ولا يكون من الاوبة فيه على يقين خبر ولا يحدث تلاق وهو الخطب الموجع والهم المفظع والحادث الاشنع والداء الدوى واكثر مايكون الهلع فيه اذا كان النائي هو المحبوب وهو الذي قالت فيه الشعراء كثيراً وفي ذلك اقول قصيدة منها :

ودي علة اعيى(٣) الطبيب علاجها ستوردني لاشك منهل مصرعي
رضيت بان اضحي قتيل وداده كجارع سم في رحيق مشعشع
فيا لليالي ما اقل حياءها واولعها بالنفس من كل مولع
كأن رماني عبشمي يجالني أعنت على عثمان اهل التشيع

واقول من قصيدة :

أطلك تمتال الحبان اباحه لمجتهد النساك من اوليائه

واقول من قصيدة :

لا رد باللقيا عليّ لامر الهوى توقع بيران النصي هيابه

واقول شعراً منه :

---

(١) السكن بفتح فسكون اهل الدار (٢) كذا في الاصل (٣) في الاصل : اعى

خفيت عن الابصار والوجد ظاهر ... فما نحن باعراض تبين ولا شخص
عدا الفلك الدوار حلقة خاتم ... محيط بنا فيه وانت له فص

واقول من قصيدة :

عيبت عن التشبيه حسناً وبهجة ... كما عيبت شمس السماء عن الحلي
عجبت لنفسي بعده كيف لم تمت ... ومجرانه دمعي ووقدانه سبي
وللجسد الغض المنعم كيف لم ... تدنه يد حشاه ...... (١)

وان للاوبة من البين الذي تشفق منه النفس لطول مسافته وتكاد تيأس من العودة فيه لروعة تبلغ مالا حد وراءه وربما قتلت (٢) وفي ذلك اقول :

للتلاقي بعد الفراق سرور ... كسرور المفيق حانت وفاته
فرحة تبهج (٣) النفوس وتحيي ... من دنا منه بالفراق مماته
ربما قد تكون داهية المو ... ت وتودي باهله فجاءته
كم رأينا من عب في الماء عطشا ... ن فوار الحمام وهو حياته

واني لاعلم من نأت دار محبوبه زمناً ثم تيسرت له اوبة فلم يكن الا قدر التسليم واستيفائه حتى دعته نوى ثانية فكاد ان يهلك وفي ذلك اقول :

أطلت زمان البعد حتى اذا انقضى ... زمان النوى بالقرب عدت الى البعد
فلم يك الا كرة الطرف قربكم ... وعاودكم بعدى وعاودني وجدي

(١) نقص في الاصل (٢) من ذلك مايروى ان جدة ابى الطيب المتنبي لما اتاها كتاب منه فيه خبر قدومه بعد طول غيبته عنها وكانت تحبه حباً جماً حمت من شدة سرورها فماتت وفي ذلك يقول ابو الطيب .

اتاها كتابي بعد يأس وترحة ... فماتت سروراً بي فمت بها غماً
حرام على قلبي السرور فانني ... اعد الذي ماتت به بعدها سما

(٣) في الاصل تبهج

كذا حائر في الليل ضاقت وجوهه رأى البرق في داج من الليل مسود
فأحلفه منه رجاء دوامه وبعض الاماني لاتفيد ولاتجدي

وفي الاوبة بعد العراق اقول قطعة منها :

لقد قرت العينان بالقرب منكم كما سخنت ايام يطويكم البعد
فلله فيما قدمضى الصبر والرضى ولله فيما قد قضى الشكر والحمد

(خبر) ولقد نعي الي بعض من كنت احب من بلدة نازحة فقمت فاراً بنفسي نحو المقابر وجعلت امشي بينها واقول :

وددت بان ظهر الارض بطن وان البطن منها صار ظهرا
واني مت قبل ورود خطب أتى فأثار في الأكباد جمرا
وان دمي لمن قد بان غسل وان ضلوع صدري كن قبرا

ثم اتصل بعد حين بتكذيب ذلك الخبر فقلت :

بشرى اتت واليأس مستحكم والقلب في سبع طباق شداد
كنت فؤادي حضرة بعدما كان فؤادي لابساً للحداد
جلى سواد الهم عني كما يجلي بلون الشمس لون السواد
هذا وما امل وصلاً سوى صدق ووفاء قديم الوداد
فالمزن قد تطلب لا للحيا لكن لظل بارد ذي امتداد

ويقع في هذين الصنفين من البين الوداع اعني رحيل المحب او رحيل المحبوب وانه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التي تفتضح فيها عزيمة كل ماضي العزائم وتذهب قوة كل ذي بصيرة وتسكب كل عين جمود ويظهر مكنون الجوى وهو فصل من فصول البين يجب التكلم فيه كالعتاب في باب الهجر ولعمري لو ان طرفاً يموت في ساعة الوداع لكان معذوراً اذا تفكر فيما يحل به بعد ساعة من انقطاع الآمال وحلول الاوجال وتبدل السرور بالحزن وانها ساعة ترق القلوب القاسية وتلين الافئدة الغلاظ وان حركة الرأس

وادمان النظر والزهرة عند الوداع لهاتكة حجاب القلب وموصلة اليه من الجزع بمقدار ماتصل حركة الوجه في ضد هذا والاشارة باليد والتبسم ومواطن الموافقة والوداع ينقسم قسمين احدهما لايتمكن فيه الا بالنظر والاشارة والثاني يتمكن فيه بالعناق والملازمة وربما لعله كان لايمكن قبل ذلك البتة مع تجاور الحال وامكان التلاقي ولهذا تمنى بعض الشعراء البين ومدحوا يوم النوى وما ذاك بحسن ولابصواب من الرأي ولا بالاصيل من الرأي فما يفي سرور ساعة بحزن ساعات فكيف اذا كان البين اياماً وشهوراً وربما اعواماً وهذا نوع من الخطر ومعوج من القياس وانما اثنيت على النوى في شعري تمنياً لرجوع يومها فيكون في كل يوم لقاء ووداع (على ان تحتمل مضض هذا الاسم الكريه وذلك عندما يمضي من الايام التي لا التقاء فيها فحينئذ يرغب المحب من يوم الفراق لو كان امكنه في كل) يوم وفي الصنف الاول من الوداع اقول شعراً منه :

تنوب عن بهجة الانوار بهجته ‏ ‏ ‏ كما تنوب عن النيران انفاسي

وفي الصنف الثاني من الوداع اقول شعراً منه :

وجه تخر له الانوار ساجدة ‏ ‏ ‏ والوجه ثم فلم ينقص ولم يزد
دفء وشمس الضحى بالجدي نازلة ‏ ‏ ‏ وبارد ناعم والشمس في الاسد

ومنه :

يوم الفراق لعمري لست اكرهه ‏ ‏ ‏ أصلاًوان شت شمل الروح عن جسدي
فيه عانقت من اهوى بلاحرج ‏ ‏ ‏ وكان من قبله ان سيل لم يجد
أليس من عجب (١) وعبرتها ‏ ‏ ‏ يوم الوصال ليوم البين ذو حسد

وهل يحسن في الافكار او قام في الظنون اشنع واوحش من هجر عتاب

(١) نقص في الاصل ولعل الكلمة الساقطة : دمعي وعبرتها

وقع بين محبين ثم تحاثهما النوى قبل حلول الصلح وانحلال عقدة الهجران فساما الى الوداع وقد نسي العتاب وجاء ماطم على الهوى واطار الكرى وفيه اقول شعراً منه :

وقد سقط الشب المقدم واعجى   وجاءت جيوش البين تجري وتسرع
وقد ذعر البين الصدود وراعه   فولى فما يدري له اليوم موضع
كذئب خلا بالصيد حتى اصابه   هزبر له من جانب الغيل مطلع
لئن سرني في طرده الهجراني   لابعده عن الحبيب لموجع
ولابد عند الموت من بعض راحة   وفي عقبها الموت الوحي المصرع

واعرف من اتى ليودع محبوبه يوم الفراق فوجده قد فات فوقف على آثاره ساعة وتردد في الموضع الذي كان فيه ثم انصرف كئيباً متغير اللون كاسف البال فما كان بعد ايام قلائل حتى اعتل ومات رحمه الله وان للنفس في اظهار السرائر المطوية عملا عجباً ولقد رأيت من كان حبه مكتوماً وبما يجد مستتراً فيه حتى وقع حادث الفراق فباح المكنون وظهر الخفي وفي ذلك اقول قطعة منها :

بذلت من الود ما كان قبل منعت   واعطيته جزافاً
ومالي به حاجة بعد ذلك   واي حدث قبل بلغت الشغاف
وما ينفع الطب عند الحمام   وينفع قبل الردى من تلافا

وأقول :

الآن اذ حل الفراق جدت لي   بحبي حب كنت تبدي بخله
فردتني في حسرتي اضعافها   ويحي فهلا كان هذا قبله

ولقد ذكرني هذا اني حظيت في بعض الازمان بمودة رجل من وزراء السلطان ايام جاهه فاظهر بعض الامتناع فتركته حتى ذهبت ايامه وانقضت دولته فابدى لي من المودة والاخوة غير قليل ومات .

مدلت لي الاعراض والدهر مقبل   وتبدل لي الاقبال والدهر معرض
وتسطو اذ ليس ينفع بسطكم   فهلا أتحت البسط اذ كنت تقبض

ثم بين الموت وهو الفوت وهو الذي لا يرجى له اياب وهو المصيبة الجالة وهو قاصمة الظهر وداهية الدهر وهو الويل وهو المغطي على ظلمة الليل وهو قاطع كل رجاء وماحي كل طمع والمؤيس من اللقاء وهنا حارت الالسن وانقطع حبل العلاج فلا حيلة الا الصبر طوعاً او كرهاً . وهو اجل ما يبتلى به المحبون فما لمن دهي به الا النوح والبكاء الى ان يتلف او يمل فهي القرحة التي لا تنكى والوجع الذي لا يفنى وهو الغم الذي يتجدد على قدر بلاء من اعتمدته في الثرى وفيه اقول :

كل بين واقع فرجى لم يمت
لا تحل قطعاً لم يمت من لم يمت
والذي قد مات فالـ يأس عنه قد ثبت

وقد رأينا من عرض له هذا كثيراً . وعني اخبرك اني احد من دهي بهذه الفادحة وتعجلت له هذه المصيبة وذلك اني كنت اشد الناس كلفاً واعظمهم حباً بجارية لي كانت فيما خلا اسمها نعم (بالضم) وكانت امنية المتمني وغاية الحسن خلقاً وخلقاً وموافقة لي وكنت ابا عذرها وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الاقدار واخترمتها الليالي ومر النهار وصارت ثالثة التراب والاحجار وسني حين وفاتها دون العشرين سنة وكانت هي دوني في السن فلقد اقمت بعدها سبعة اشهر لا اتجرد عن ثيابي ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة اسعادها وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ولو قبل فداء لفديتها بكل ما املك من تالد وطارف وببعض اعضاء جسمي العزيزة علي مسارعاً طائعاً وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد عفى حبي لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده . ومما قلت فيها

مهدية بيضاء كالشمس ان بدت　　وسائر ربات الحجـال نجوم
أطار هواها القلب عن مستقره　　فعد وقوع طل وهو يحوم

ومن مراثي فيها قصيدة منها :

كأني لم آنس بالعاطك التي　　على عقد الالباب هن نوافث
ولم احكم في الاماني كأني　　لافراط ماحكمت فيهن عابث

ومنهـا .

ويدين اعراضاً وهن أوالف　　ويقسمن في هجري وهن حوانث

واقول ايضاً في قصيدة اخاطب فيها ابن عمي ابا المغيرة عبد الوهاب احمد ابن عبد الرحمن بن حزم بن غالب واقرضه فاقول :

قفا فاسألا الاطلال اين قطينها　　أمرت عليها بالبلى الملوان
على دارسات مقفلات عواطل　　كأن المغاني في الخفاء معاني

واختلف الناس في اي الامرين اشد البين ام الهجر وكلاهما مرتقى صعب وموت احمر وبلية سوداء وسنة شهباء (١) وكل يستشنع من هذين ماصادف طبعه فاما ذو النفس الابية الاانوف لالوف الخائنة الثابتة على العهد فلا شيء يعدل عنده مصيبة البين لانه أتى قصداً وتعمدته النوائب عمداً فلا يجد شيئاً يسلي نفسه ولاتصرف فكرته في معنى من المعاني الا وجد باعثاً على صبابته ومحركاً لاشجانه وعليه لا له وحجة لوجده وحاضاً على البكاء على إلفه واما الهجر فهو داعية السلو ورائد الاقلاع واما ذو النفس التواقة الكثيرة الروع والتطلع القلوق العزوف فالهجر داؤه وحالب حتفه والبين له مسلاة ومنساة واما انا فالموت عندي اسهل من الفراق وما الهجر الا جالب للكمد فقط ويوشك ان دام ان يحدث ابشاراً (٢) وفي ذلك اقول .

---

(١) سنة شهباء مجدبة (٢) في الاصل : ابشارا

وقالوا ارتحل فلعل السلو ... يكون وترغب ان ترعه
فقلت الردى لي قبل السلو ... ومن يشرب السم عن تجربه

واقول :

سبى مهجتي هواه ... واودت بها نواه
كأن الغرام صبغ ... وروحي غدا قراه

ولقد رأيت من يستعمل هجر محبوبه ويتعمده خوفاً من مرارة يوم البين وما يحدث به من لوعة الأسف عند التفرق وهذا وان لم يكن عندي من المذاهب المرضية فهو حجة قاطعة على ان البين اصعب من الهجر وكيف لا وفي الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين ولم اجد احداً في الدنيا يلوذ بالبين خوفاً من الهجر وانما يأخذ الناس ابدا الاسهل ويتكلفون الاهون وانما قلنا انه ليس من المذاهب المحمودة لان اصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله وتجرعوا غصة الصبر قبل وقتها ولعل ماتخوفوه الا يكون ليس من يتعجل المكروه وهو على غير يقين مما لم يتعجل بحكيم وفيه اقول شعراً منه :

لبس البعد للصبابة نيا ... ليس من جانب الاحبة ما
كمن يعيش عيش فقير ... خوف فقر وفقره قد ألما

وذكر لابن عمي ابي المغيرة هذا المعنى من ان البين اصعب من الصد ابياتاً من قصيدة خاطبني بها وهو ابن سبعة عشر عاماً او نحوها وهي :

أجزعت ان ازف الرحيل ... وولهت ان نص الذميل
كلا مصابك فادح ... وأجل فراقهم جليل
كذب الاولى زعموا بان ... الصد مرتعه وبيل
لم يعرفوا كنه العليـ ... ـل وقد تحملت الحمول
اما الفراق فانه ... للموت ان اهوى دليل

ولي في هذا المعنى قصيدة مطولة اولها :

لامثل يرمك صحوة النسيم ... في منظر حسن وفي تنعيم
قد كان ذاك اليوم مدة عاقر ... وصواب حاطئة وولد عقيم
ايام رق الوصل ليس محلب ... عدني ولاروض الهوى بهشيم
من كل غانية يقول نديها ... سيرى امامك والارداف أقيمي
كل يجادبها لحمرة خدها ... حجل من التأخير والتقديم
ما لي سوى تلك العيون وليس في ... رءي سواها في الورى زعيم
مثل الافاعي ليس في شيء سوى ... أحسادها اراه لدغ سليم

والبين ابكى الشعراء على المعاهد فأذروا على الرسوم الدموع وسقوا البيد ماء الشوق وتذكروا ماقد سلف لهم فيها فاعولوا وانتحبوا واحيت الآثار دفين شوقهم فناحوا وبكوا ولقد اخبرني بعض الوراد من قرطبة وقد استخبرته عنها انه رأى دورنا بلاط مغيث في الجانب الغربي منها وقد امحت رسومها وطمست اعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى وصارت صحاري مجدبة بعد العمران وفيافي موحشة بعد الانس وخرائب منقطعة بعد الحسن وشعاباً مفزعة بعد الامن ومأوى الذئاب ومعازف للغيلان وملاعب للجان ومكامن للوحوش بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية . تبدد شملهم فصاروا في البلاد ايادي سبا فكأن تلك المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة التي كانت تشرق اشراق الشمس ويجلو الهموم حسن منظرها حين شملها الخراب وعمها الهدم كافواه السباع فاغرة تؤذن بفناء الدنيا وتريك عواقب اهلها وتخبرك عما يصير اليه كل من تراه قائماً فيها وتزهد في طلبها بعد ان طال مازهدت في تركها وتذكرت ايامي بها ولذاتي فيها وشهور صباي لديها مع كواعب الى مثلهن صبا الحليم ومثلت لنفسي كونهن تحت الثرى وفي الآثار النائية والنواحي البعيدة

وقد ورفهن يد الحلاء ومرقتهن أكف النوى وحيل الى نصري شقاء تلك الصبة بعد ماعلته من حسنها وعصارتها والمراتب المحكمة التي نشأت فيها لديها وحلاء تلك الابنية بعد تصايقها باهلها واوهمت سمعي صوت الصدى والهام (١) عليها بعد حركة تلك الجماعات التي ربيت بينهم فيها وكان ليلها تبعاً لنهارها في اشتداد ساكنها والتقاء عمارها فعاد نهارها تبعاً لليلها في الهدؤ والاستيحاش فاسكى عيني واوجع قلبي وقرع صفاة كبدي وزاد في بلاء لبي فقلت شعراً منه :

اني كان أطلها فقد طال ماسقى ... وان ساءنا فيها فقد طال ماسرا

واني يولد الحنين والاهتياج واتذكر وفي ذلك اقول :

نبت العراب بعيد اليوم لي وصبى ... بين بينهم عني فقد وقفا
أقول والليل قد أرخى اجلته ... وقد تألى مأن لاينقضي خوفا
والنجم قد حار في افق السماء فما ... يمضي ولاهو للتحبير(٢)منصرفا
تحاله محطئاً او حائفاً وجلا ... اوراقباً(٣) موعداً اوعاشقاً دنفا

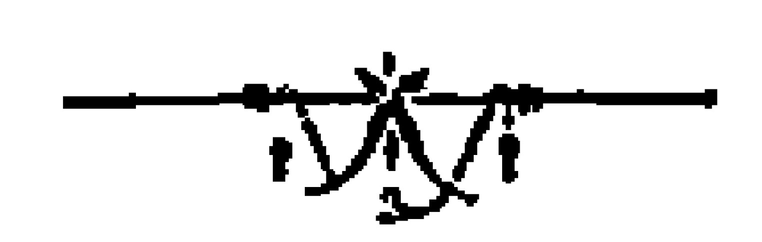
---

(١) الصدى البوم الذكر والهام جمع هامة وهي طائر من طيور الليل

(٢) لعل الصواب . للتحيير بحاء مهملة • اي من اجل حيرته وهو المناسب لقوله . قد حار . والمعنى انه لاينقضي في سيره ولاينصرف راجعاً على اعقابه وهو مقتبس من قول امرىء القيس .

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل

(٣) في الاصل راتباً



﴿ باب القنوع ﴾

ولا بد للمحب اذا حرم الوصل من القنوع بما يجد وان في ذلك لتعللا للنفس وشغلا للرجاء وتجديداً للمنى وبعض الراحة وهو مراتب على قدر الاصابة والتمكن فاولها الزيارة وانها لامل من الآمال ومن سري ما يسنح في الدهر مع ما تبدي من الخفر والحياء لما يعلمه كل واحد منهما مما في نفس صاحبه وهي على وجهين احدهما ان يزور المحب محبوبه وهذا الوجه واسع والوجه الثاني ان يزور المحبوب محبه ولكن لا سبيل الى غير النظر والحديث الظاهر وفي ذلك أقول :

فان تنأ عني بالوصال فانني ... سأرضى بلحظ العين ان لم يكن وصل
فحسبي ان القاك في اليوم مرة ... وما كنت ارضى ضعف ذا منك لي قبل
كذا همة الوالي تكون رفيعة ... ويرضى خلاص النفس ان وقع العزل

واما رجع السلام والمخاطبة فامل من الآمال وان كنت انا اقول في قصيدة لي فيها انا ذا أحيي واقنع راضياً ... رجع سلام ان تيسر في الحين

فانما هذا لمن ينتقل من مرتبة الى ما هو ادنى منها وانما يتفاضل المخلوقات في جميع الاوصاف على قدر اضافتها الى ماهو فوقها او دونها واني لاعذر من كان يقول لمحبوبه عدني واكذب قنوعاً بان يسلي نفسه في وعده وان كان غير صادق فقلت في ذلك ·

ان كان وصلك ليس فيه مطمع ... والقرب ممنوع فعدني واكذب
فعسى التعلل بالتقائك ممسك ... لحياة قلب بالصدود معذب
فلقد يسلي المجدبين اذا رأوا ... في الافق يلمع ضوء برق خلب

ومما يدخل في هذا الباب شيء رأيته ورآه غيري معي ان رجلا من

اخو في جرحه من كفه بحجة تدمية فلقد رأيته وهو يقبل مكان الجرح ويديمه مرةً بعد مرة فقلت في ذلك :

يقولون شجك من همت فيه   فقلت لعمري ما شجني
ولكن احس دمي قربه   فطار اليه ولم ينثن
فيا قاتلي ظالماً محسناً   فديتك من ظالم محسن

ومن القنوع ان يسر الانسان ويرضى ببعض آلات محبوبه وان له من النفس لموقعاً حسناً وان لم يكن فيه الا ما قص الله تعالى علينا من ارتداد يعقوب بصيراً حين شم قميص يوسف عليهما السلام وفي ذلك اقول :

لما منعت القرب من سيدي   ولج في هجري ولم ينصف
صرت بابصاري اثوابه   او بعض ما قد مسه اكتفي
كذاك يعقوب نبي الهدى   اذ شفه الحزن على يوسف
شم قميصاً جاء من عنده   وكان مكفوفاً فمنه شفي

وما رأيت قط متعاشقين الا وهما يتهاديان خصل الشعر مبخرة بالعنبر مرشوشة بماء الورد وقد جمعت في اصلها بالمصطكى وبالشمع الابيض المصفى ولفت في تعاريف الوشي والخز وما اشبه ذلك لتكون تذكرة عند البين واما تهادي المساويك بعد مضغها والمصطكى اثر استعمالها فكثير بين كل متحابين قد حظر عليهما اللقاء وفي ذلك اقول قطعة منها :

أرى ريقها ماء الحياة تيقناً   على انها لم تبق لي في الهوى حشا

(خبر) واخبرني بعض اخواني عن سليمان بن احمد الشاعر انه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية وذكر انه كان غاية في الجمال فشاهده يوماً في بعض المتنزهات ماشياً وامرأة خلفه تنظر اليه فلما ابعد اتت الى المكان الذي قد أثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثم الارض التي فيها اثر رجله وفي ذلك اقول قطعة اولها :

يلوموني في موطنه حبه حقاً ولو علموا عاد الذي لام يحسد
فيا اهل ارض لاتجود سحابها خذوا بوصاتي تستقلوا وتحمدوا
خذوا من تراب فيه موضع وطئه وأضمن ان المحل عنكم يبعد
فكل تراب واقع فيه رجله فذاك صعيد طيب ليس يجحد
كذلك فعل السامري وقد بدا لعينيه من جبريل إثر مجدد
فصير خوف المحل من ذلك الثرى فقام له منه خوار ممدد

واقول :

لقد بوركت ارض بها انت قاطن وبورك من فيها وحل بها السعد
فاحجارها در وسعدانها ورد وامواهها شهد وتربتها ند

ومن القنوع الرضى بزوار الطيف وتسليم الخيال وهذا انما يحدث عن ذكر لايفارق وعهد لايحول وفكر لاينقضي فاذا نامت العيون وهدأت الحركات سرى الطيف وفي ذلك اقول :

زار الخيال فتى طالت صبابته على احتفاظ من الحراس والحفظه
فبت في ليلتي جذلان مبتهجاً ولذة الطيف تنسي لذة اليقظة

واقول :

أتى طيف نعم (١) مضجعي بعد هدأة وللبل سلطان وظل ممدد
وعهدي بها تحت التراب مقيمة وجاءت كما قد كنت قبله اعهد (٢)
فعدنا كما كنا وعاد زماننا كما قد عهدنا قبل والعود احمد

وللشعراء في علة مزار الطيف اقاويل بديعة بعيدة المرمى مخترعة كل سبق الى معنى من المعاني فابو اسحق ابن سيار النظام رأس المعتزلة جعل علة مزار

---

(١) انظر ماتقدم من خبرها في الصفحة ٨٨ (٢) يجب اختلاس مد الهاء في « قبله » ليستقيم الوزن ولو قيل « من قبل » لاستقام بلا تكلف

الطيف خوف الارواح من الرقيب المرقب على بهاء الابدان وابو تمام حبيب ابن اوس الطائي حمل علته ان نكاح الطيف لايفسد الحب ونكاح الحقيقة يفسده والبحتري حمل علة اقباله استماتته بسار وجده وعلة زواله خوف الغرق في دموعه وانا اقول من غير ان امثل شعري باشعارهم فلهم فضل التقدم والسابقة وانما نحن لاقطون وهم الحاصدون ولكن اقتداء بهم وحرباً في ميدانهم وتبعاً لطرقهم التي نهجوا واوضحوا : ابياتاً بينت فيها مزار الطيف مقطعة :

أغار عليك من ادراك طرفي وأشفق ان يذيبك لمس كفي

فأمتنع اللقاء حذار هذا وأعتمد التلاقي حين اغفي

فروحي ان انم بك ذو انفراد من الاعضاء مستتر ومخفي

ووصل الروح ألطف فيك وقعاً من الجسم المواصل الف ضعف

وحال المرء في المنام ينقسم اقساماً اربعة احدها محب مهجور قد تطاول عنه ثم رأى في هجعته ان حبيبه وصله فسر بذلك وابتهج ثم استيقظ فأسف وتلهف حيث علم ان ما كان فيه اماني النفس وحديثها وفي ذلك اقول :

انت في مشرق النهار بخيل واذا الليل جن كنت كريماً

تجعل الشمس منك لي عوضاً هيـ ـهات ماذا الفعال منك قويماً

زارني طيفك البعيد فيأتي واصلا لي وعائداً ونديماً

غير اني معنتي من تمام العيـ ـش لكن الحت لي التشميا

فكأني من اهل الاعراف لا الفر دوس داري ولا اخاف الجحيما

والثاني محب مواصل مشفق من تغير يقع قد رأى في وسنه ان حبيبه يهجره فاهتم لذلك هماً شديداً ثم هب من نومه فعلم ان ذلك باطل وبعض وساوس الاشفاق . والثالث محب داني الديار يرى ان النائي قد ندحه ، فيكترث ويوجل ، ثم ينتبه فيذهب ما به ويعود فرحاً . وفي ذلك اقول قطعة منها :

رأيتك في نومي كأنك راحل   وقنا الى التوديع والدمع هامل
وزال الكرى عني وانت معانقي   وعمي اذ عاينت ذلك زائل
فحددت تضيقاً وصمماً كأنني   عليك من البين المفرق واجل (١)

والزائم بعد تأتي المزار يرى ان المزار قد دنا والمنازل قد تصاقبت فيرتاح وياس الى فقد الاسى ثم يقوم من سنته فيرى ان ذاك غير صحيح فيعود الى اشد ما كان فيه من الهم وقد حملت في بعض قولي علة النوم الطمع في طيف الخيال فقلت :

طاف الخيال على مستهتر كلف   لولا ارتقاب مزار الطيف لم ينم
لاتعجبوا اذ سرى والليل معتكر   فنوره مرهب في الارض للظلم

ومن القنوع ان يقنع المحب بالنظر الى الجدران ورؤية الحيطان التي تحتوي على من يحب وقد رأينا من هذه صفته ولقد حدثني ابو الوليد احمد بن محمد ابن اسحق الخازن رحمه الله عن رجل جليل انه حدث عن نفسه بمثل هذا ومن القنوع ان يرتاح المحب الى ان يرى من رأى محبوبه وياس به ومن اتى من بلاده وهذا كثير وفي ذلك اقول :

توحش من سكانه فكأنهم   مساكن عاد اعقبته ثمود

ومما يدخل في هذا الباب ابيات لي موجبها اني تنزهت انا وجماعة من اخواني من اهل الادب والشرف الى بستان لرجل من اصحابنا فجلنا ساعة ثم افضى بنا القعود الى مكان دونه يتمنى فتمددنا في رياض اريضة (٢) وارض عريضة للبصر فيها منفسح وللنفس لديها مسرح بين جداول تطرد كأنها الايم اللجين واطيار تغرد بالحان تزري على ابدعه معبد واين الغريض وثمار مهدلة قد ذللت للايدي ودنت للمتناول وظلال مطلة تلاحظنا الشمس من بينها فتصور بين

(١) في الاصل قابل ولامعنى له (٢) الارض الاريضة : المعجبة للعين

ايدينا كرقاع الشطرنج والثياب المدبجة وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة وانهار متدفقة تنساب كبطون الحيات لها خرير يقوم ويهدأ (١) ومواوير مؤدة مختلفة الالوان تصفقها الرياح الطيبة النسيم وهواء سجسج (٢) واخلاق خلاص تسوق كل هذا في يوم ربيعي ذي شمس دائلة تارة يغطيها الغيم الرقيق والمزن اللطيف وتارة تنجلي فهي كالعذراء الخفرة والخريدة الخجلة تتراءى لعاشقها من بين الاستار ثم تغيب فيها حذر عين مراقبة وكان معنا مطرقاً كأنه يحادث (٣) اخرى وذلك لمعنى كان له فعرض لي بذلك وداعبنا حيناً فكلفت ان اقول على لسانه شيئاً في ذلك فقلت بديهة وما كتبوها الا من تذكرها بعد انصرافنا وهي .

ولما تروحنا بأكناف روضة	مهدلة الافنان في تربها الندي
وقد ضحكت انوارها وتضوعت	أساويرها في ظل فيء ممدد
وأبدت لنا الاطيار حسن صريرها	فمن بين شاك شجوه ومغرد
والماء فيما بينا متصرف	والعين مرتاد هناك وللند
وما شئت من اخلاق اروع ماجد	كريم السجايا للفخار مشيد
تنغص عندي كل ما قد وصفته	ولم ينهني اذ غاب عني سيدي
فياليتني في السجن وهو معانقي	وانتم معاً في قصر دار المجدد
فمن رام منا ان يبدل حاله	محال اخيه او عليك مخلد
فلا عاش الا في شقاء ونكبة	ولا زال في بؤسى وخزي مردد

فقال هو ومن حضر آمين آمين وهذه الوجوه التي عددت واوردت في حقائق القناعة الموجودة في اهل المودة بلا تزيد ولا اعياء .

---

(١) في الاصل : يهدى (٢) الهواء السجسج : المعتدل بين الحر والبرد

(٣) لعل الصواب : محادثة

وللشعراء فن من الفنون ارادوا فيه اظهار عرضهم وابانة اقتدارهم على المعاني الغامضة والمرامي البعيدة وكل قال على قدر قوة طبعه الا انه تحكم باللسان وتشدق في الكلام واستطالة بالبيان وهو غير صحيح في الاصل فمنهم من قنع بان السماء تظله هو ونحوه والارض تقلهما ومنهم من قنع باستوائهما في احاطة الليل والنهار بهما ومن اشباه هذا وكل بادر الى احتواء الغاية في الاستقصاء واحراز قصب السبق في التدقيق ولي في هذا المعنى قول لايمكن المتعقب الى (١) ان يجد بعده متناولا ولاوراءه مكاناً مع تبيني علة قرب المسافة البعيدة وهو :

وقالوا بعيد قلت حسبي بانه معي في زمان لايطيق محيداً
تمر علي الشمس مثل مرورها به كل يوم يستنير جديداً
فمن ليس بي في المسير وبينه سوى قطع يوم هل يكون بعيدا
وعلم إله الخلق يجمعنا معاً كفى ذا التداني ما اريد مزيدا

فبت كما ترى اني قانع بالاجتماع مع من احب في علم الله الذي السموات والافلاك والعوالم كلها وجميع الموجدات لاتنتسب منه ولا تتحرأ فيه ولا يشذ عنه شيء ثم اقتصرت من علم الله تعالى على انه في زمان وهذا اعم مما قاله غيري في احاطة الليل والنهار وان كان الظاهر واحداً في البادي الى السامع لان كل المخلوقات واقعة تحت الزمان وانما الزمان اسم موضع لمرور الساعات وقطع الفلك وحركاته واجرامه والليل والنهار متولدان عن طلوع الشمس وغروبها وهما متناهيان في بعض العالم الاعلى وليس هكذا الزمان فانهما بعض الزمان وان كان لبعض الفلاسفة قول ان الظل متناه فهذا يحطبه العيان وعلل الرد عليه بينة ليس هذا موضعها ثم بينت انه وان كان في اقصى المعمور من المشرق وانا في اقصى

(١) لامحل لكلمة « الى » من الكلام

الممور من المغرب وهذا طول السكى عليس بيي وبينه الامسافة يوم اذ الشمس تبدو في اول النهار في اول المشارق وتغرب في آخر النهار في آخر المغارب ومن القنوع فصل أورده واستعيذ بالله منه ومن اهله واحمده على ماعرف منوسا من مفارقته وهو ان يصل العقل حملة وتفسد القريحة ويتلف التمييز ويهون الضعف وتذهب الغيرة وتسلم الانفة فيرضى الانسان بالمشاركة في من يحب وقد عرض هذا القوم اعاذنا الله من البلاء وهذا لايصح الا مع كلية في الطبع وسقوط من العقل الذي هو عيار (١) على ماتحته وضعف حس ويؤيد هذا كله حب شديد مهم فاذا اجتمعت هذه الاشياء وتلاقحت غرائز الطبائع ودخول بعضها في بعض نتج بينهما هذا الطبع الخسيس وتولدت هذه الصفة الرذلة وقام منها هذا الفعل المقذور والقبيح واما رجل معه اقل همة وايسر مروءة فهذا منه ابعد من الثريا ولو مات وجداً وتقطع حباً وفي ذلك اقول زاريا على بعض المسامحين في هذا الفصل :

رأيتك رحب الصدر ترضى بما أتى ... واصل شيء ان تلين وتسمحا

لحظك من بعض السواني(١) مفصل ... على ان يجور الملك من اصلها الرحا

وعصو مير فيه في الوزن ضعف ما ... تقدره في الحدي فاعض الذي لحا

ولمس الذي تهوى بسيفين معجب ... فكن ناجياً في نحوه كف ما نحا

---

(١) لعل الصواب : معيار

(١) السانية كالناعورة تسقى بها الارض

﴿ باب الضنى ﴾

ولابد لكل محب صادق المودة ممنوع الوصل اما ببين واما بهجر واما بكتمان واقع لمعنى من ان يؤول الى حد السقام والضنى والنحول وربما اضجعه ذلك وهذا الامر كثير جداً موجود ابداً والاعراض الواقعة من المحبة غير العلل الواقعة من هجمات العلل ويميزها الطبيب الحاذق والمتفرس الناقد وفي ذلك اقول :

يقول لي الطبيب بغير علم	تداو فانت يا هذا عليل
ودائي ليس يدريه سوائي	ورب قادر ملك جليل
أأكتمه ويكشفه شهيق	يلازمني واطراق طويل
ووجه شاهدات الحزن فيه	وجسم كالخيال ضنٍ نحيل
وانت مايكون الامر يوماً	بلا شك اذا صح الدليل
فقلت له ان عني قليلاً	فلا والله تعرف ماتقول
فقال ارى نحولاً زاد جداً	وعلتك التي تشكو ذبول
فقلت له الذبول تحل منه الجـ	ـوارح وهي حمى تستحيل
وما اشكو لعمر الله حمى	وان الحر في جسمي قليل
فقال ارى التهاباً وارتقاباً	وافكاراً وصمتاً لا يزول
واحسب انها السوداء فاطر	لنفسك انها عرض ثقيل
فقلت له كلامك ذا محال	فما للدمع من عيني يسيل
فاطرق باهتاً مما رآه	ألا في مثل ذا بهت النبيل
فقلت له دوائي منه دائي	الا في مثل ذا ضلت عقول
وشاهد ما اقول يرى عياناً	فروع الدت ان عكست اصول
وترياق الافاعي ليس شيء	سواه ببرء ما لدغت كفيل

وحدثني ابو بكر محمد بن بقي الحجري وكان حكيم الطبع عاقلا فهما عن رجل من شيوخنا لايمكن ذكره انه كان ببغداد في خان من خاناتها فرأى امة لوكيل الخان فاحبها وتزوجها فلما خلا بها نظرت اليه وكانت بكراً وهو قد تكشف لبعض حاجته فراعها ... . ففرت الى اهلها وتفادت منه فرام بها كل من حواليها ان ترد اليه فأبت وكادت ان تموت ففارقها ثم ندم ورام ان يراجعها فلم يمكنه واستعان بالازهري وغيره فلم يقدر احد منهم على حيلة في امره فاختلط عقله واقام في المارستان يعاني مدة طويلة حتى نقه وسلا وما كاد ولقد كان اذا ذكرها يتنفس الصعداء وقد تقدم في اشعاري المذكورة في هذه الرسالة من صفة النحول مفرقاً ما استغنيت به عن ان اذكر هنا من سواها شيئاً خوف الاطالة والله المعين والمستعان وربما ترقت الى ان يغلب المرء على عقله ويحال بينه وبين ذهنه فيوسوس

(خبر) واني لاعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد وقد بلغ بها حب فتى من اخواني جداً من ابناء الكتاب مبلغ هيجان المرار الاسود وكادت تختلط واشتهر الامر وشاع جداً حتى علماه وعلمه الاباعد الى ان تدوركت بالعلاج وهذا انما يتولد عن ادمان الفكر فاذا غلبت الفكرة وتمكن الخلط السوداوي خرج الامر عن حد الحب الى حد الوله والجنون واذا اغفل التداوي في الاول الى المابلة قوى جداً ولم يوجد له دواء سوى الوصال ومن بعض ما كتبت اليه قطعة منها :

قدسلبت الفؤادمنها(١)اختلاساً — اي خلق يعيش دون فؤاد

فاغثها بالوصل تحي شريفاً — وتفز بالثواب يوم المعاد

واراها تعتاض ان دام هذا — من خلا جيبها حلى الاقياد

---

(١) في الاصل : مني

استحقاً متيم الشمس حتى   عشقها بين دا الورى لمنادي

(خبر) وحدثني جعفر مولى احمد بن محمد بن حدير المعروف بالبلينبي ان سبب اختلاط مروان بن يحيى بن احمد بن حدير وذهاب عقله اعتلاقه بجارية لاخيه فمنعها منه واباعها (١) غيره وما كان في اخوته مثله ولا اتم ادباً منه واخبرني ابو العافية مولى محمد بن عباس بن ابي عبدة ان سبب جنون يحيى بن احمد ابن عباس بن ابي عبدة بيع جارية له كان يجد بها وجداً شديداً كانت امه باعتها وذهبت الى انكاحه من بعض العامريات فهذان رجلان جليلان مشهوران فقدا عقولهما واختلطا وصارا في القيود والاغلال فاما مروان فاصابته ضربة مخطئة يوم دخول البربر قرطبة وانتهابهم اياها فتوفي رحمه الله واما يحيى ابن محمد فهو حي على حالته المذكورة في حين كتابتي لرسالتي هذه وقد رأيته انا مراراً وجالسته في القصر قبل ان يمتحن بهذه المحنة وكان استاذي واستاذه الفقيه ابو الخيار اللغوي وكان يحيى لعمري حلواً من الفتيان نبيلاً . واما من دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيراً ولكن لم نسمهم لخفائهم وهذه درجة اذا بلغ المشغوف اليها فقد انبت الرجاء وانصرم الطمع فلا دواء له بالوصل ولا بغيره اذ قد استحكم الفساد في الدماغ وتلفت المعرفة وتغلبت الآفة اعاذنا الله من البلاء بطوله وكفانا القم عنه .

---

(١) اراد من الاباعة هنا البيع نفسه ، والذي في القاموس : اباعه عرضه للبيع

(باب السلو)

وقد علمنا ان كل ماله اول فلا بد له من آخر حاشى نعيم الله عز وجل بالجنة لاوليائه وعذابه بالنار لاعدائه واما اعراض الدنيا فنافدة فانية وزائلة مضمحلة وعاقبة كل حب الى احد امرين اما اخترام منية واما سلو حادث وقد نجد النفس تغلب عليها بعض القوى المصرفة معها في الجسد فكما نجد نفساً ترفض الراحات والملاذ للعقل في طاعة الله تعالى وللرياء في الدنيا حتى تشتهر بالزهد فكذلك نجد نفساً تنصرف عن الرغبة في لقاء شكلها للانفة المستحكمة النافرة للغدر او استمرار سوء المكافأة في الضمير وهذا اصح السلو وما كان من غير هذين الشيئين فليس الا مذموماً والسلو المتولد عن الهجر وطوله انما هو كاليأس يدخل على النفس من بلوغها الى املها فيفتر نزاعها ولا يقوى رغبتها ولي في ذم السلو قصيدة منها :

اذا غارت فالحي ميت بلحظها ... وان نطقت قامت السلام رطاب

كأن الهوى ضيف ألم بمهجتي ... فلحمي طعام والنجيع شراب

ومنها :

صبور على الارزاء الذي الهجر جانبه ... ولو امطرته بالحريق سحاب

جزوع على الراحات ان انتحت له ... حؤولا وفي بعض النعيم عذاب

والسلو في التجربة الجملة ينقسم قسمين سلو طبيعي وهو المسمى بالنسيان يخلو به القلب ويفرغ به البال ويكون الانسان كانه لم يحب قط وهذا القسم ربما لحق صاحبه الذم لانه حادث عن اخلاق مذمومة وعن اسباب غير موجبة استحقاق النسيان وسنأتي مبينة ان شاء الله تعالى وربما لم تلحقه اللائمة لعذر صحيح والثاني سلو تطبعي قهر النفس وهو المسمى بالتصبر فترى المرء يظهر التجلد

حوفي قلبه اشد لذعاً من وخز الاشفى (١) ولكنه يرى حض الشر اهون بعض او يحاسب نفسه بحجة لاتصرف ولا تكسر وهذا قسم لا يذم آتيه ولا يلام فاعله لانه لايحدث الا عن عظيمة ولا يقع الا عن فادحة اما لسبب لا يصبر على مثله الاحرار واما لخطب لامرد له تجري به الاقدار وكفاك من الموصوف به انه ليس ناس لكنه ذاكر وذو حنين واقف على العهد ومتجرع مرارات الصبر والفرق الغامض بين المتصبر والناسي انك ترى المتصبر وان ابدى غاية الجلد واظهر سب محبوبه والتحمل عليه لا يحتمل ذلك من غيره وفي ذلك اقول قطعة منها :

دعوني وسبي للحبيب فانني وان كنت ابدي الهجر لست معاديا
ولكنني للحبيب كتوطئ أخاذ ملقاه الاله الدواهيا

والناسي ضد هذا وكل هذا على قدر طبيعة الانسان واجابتها وامتناعها وقوة تمكن الحب من القلب او ضعفه وفي ذلك اقول وسميت السالي فيه المتصبر قطعة منها :

ناسي الاحبة غير من يسلوهم حكم المقصر غير حكم المقصر
ما قاصر للنفس غير محبها ما الصابر المطبوع كالمتصبر

والاسباب الموجبة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة وعلى حسبها وتقدر الواقع منها يعذر السالي ويذم

فمنها الملل وقد قدمنا الكلام عليه وان من كان سلوه عن ملل فليس حبه حقيقة والموسم به صاحب دعوى زائفة وانما هو طالب لذة ومبادر شهوة والسالي من هذا الوجه ناس مذموم (٢)

---

(١) الاشفى : المثقب والمراد يخرز به ويؤنث « قاموس »

(٢) انظر ماقدمه في الصفحة ٦٩—٧٠ عن ابي عامر محمد بن عامر

ومنها الاستدلال وهو وان كان يشبه الملل ففيه معنى زائد فهو بذلك المعنى اقبح من الاول وصاحبه احق بالذم

ومنها حياء مركب يكون في المحب يحول بينه وبين التعريض بما يجد فيتطاول الامر وتتراخى المدة ويبلى جديد المودة ويحدث السلو وهذا وجه ان كان السالي عنه ناسياً فليس تنقصه اذ نفسه جاءه سبب الحرمان وان كان متصبراً فليس تلوم اذ آثر الحياء على لذة نفسه وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: (الحياء من الايمان والبذاء من النفاق) وحدثنا احمد ابن محمد عن احمد بن مطرف عن عبد الله بن يحيى عن ابيه عن ملك عن سلمة بن صفوان الزرقي عن زيد بن طلحة بن ركانة يرفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : (لكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء) فهذه الاسباب الثلاثة اصلها من المحب وابتداؤها من قبله والذم لاصق به في نسيانه لمن يحب

ثم منها اسباب اربعة هي من قبل المحبوب واصلها عنده فمنها الهجر وقد مر تفسير وجوهه ولا بد لنا ان نورد منه شيئاً في هذا الباب بوافقه والهجر اذا تطاول وكثر العتاب واتصلت المفارقة يكون باباً الى السلو وليس من وصالك ثم قطعك لغيرك من باب الهجر في شيء لانه الغدر الصحيح ، ولا من مال الى غيرك دون ان يتقدم لك معه صلة من الهجر ايضاً في شيء انما ذلك هو النفار وسيقع الكلام في هذين الفصلين بعد هذا ان شاء الله تعالى لكن الهجر ممن وصلك ثم قطعك لتثقيل واش او لذنب واقع او لشيء قام في النفس ولم يمل الى سواك ولا اقام احداً غيرك مقامك والناسي في هذا الفصل من المحبين ملوم دون سائر الاسباب الواقعة من المحبوب لانه لا يقع حالة تقيم العذر في نسيانه وانما هو راغب عن وصالك وهو شيء لا يلزمه وقد تقدم من اذمة الوصال وحق الفه ما يلزم الذكر ويوجب عهد الالفة ولكن السالي على

جهة التصبر والتجلد فاهما معذور اذا رأى الهجر متمادياً ولم ير للوصل علامة ولا للمراجعة دلالة ، وقد استجار كثير من الناس ان يسموا هذا المعنى غدراً اذ ظاهرهما واحد ولكن علتيهما مختلفتان فلذلك فرقنا بينهما في الحقيقة واقول في ذلك شعراً منه :

فكونوا كمن لم أدر قط وانني كآخر لم تدروا ولم تصلوه
انا كالصدا ماقال كل أجيبه فما شئتموه اليوم فاعتمدوه

واقول ايضاً قطعة ثلاثة ابيات قلتها وانا نائم واستيقظت فاضفت اليها البيت الرابع :

الا لله دهر كنت فيه أعز علي من روحي وأهلي
فما برحت يد الهجران حتى طواك ماينها طي السجل
سقاني الصبر هجركم كما قد سقاني الحب وصلكم بسجل
وجدت الوصل اصل الوجد حقاً وطول الهجر اصلا للتسلي

واقول ايضاً منها

لو قيل لي من قبل ذا ان سوف تسلو من تود
لحلفت الف قسامة لا كان ذا ابد الابد
واذا طويل الهجر ما معه من السلوان بد
لله هجرك إنه ساع لمرء مجتهد
فالآن اجمح للسلو وكنت اجمح للجلد
وأرى هواك كجمرة تحت الرماد لها مدد

واقول :

كانت جهنم في اعتقادي من حكم فلقد أراها بالذي اراهما

ثم الأسباب الثلاث الباقية التي هي من قبل المحبوب فالمتصبر من الناس فيها غير مذموم لما سنورده ان شاء الله في كل فصل منها

فتنها سار يكون في المحبوب وارواء قاطع للاطماع

(خبر) واني لأخبرك عني اني الفت في ايام صباي الفة المحبة جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها عديمة الهزل منيعة البذل بديعة البشر مسبلة الستر فقيدة الذام قليلة الكلام مغضوضة البصر شديدة الحذر نقية من العيوب دائمة القطوب حلوة الاعراض مطبوعة الانقباض مليحة الصدود رزينة القعود كثيرة الوقار مستلذة النفار لا توجه الاراجي نحوها ولا تقف المطامع عليها ولامعرس للامل لديها فوجهها جالب كل القلوب وحالها طارد من أمها ، تزدان في المنع والبخل مالايزدان غيرها بالسماحة والبذل موقوفة على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو على انها كانت تحسن العود احساناً جيداً فجنحت اليها واحببتها حباً مفرطاً شديداً فسعيت عامين او نحوهما ان تجيبني بكلمة واسمع من فيها لفظة — غير مايقع في الحديث الظاهر الى كل سامع — بأبلغ السعي فما وصلت من ذلك الى شيء البتة ، فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض مايصطنع له في دور الرؤساء تجمعت فيه دخلتنا ودخلة اخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله فلبثن صدراً من النهار ثم تنقلن الى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها (١) مفتحة الابواب فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وانا بينهن فاني لأذكر اني كنت اقصد نحو الباب الذي هي فيه انساً بقربها متعرضاً للدنو منها فما هو الا ان تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة فاتعمد انا القصد الى الباب الذي صارت اليه فتعود الى مثل ذلك الفعل من الزوال الى غيره ، وكانت قد

---

(١) الفحوص جمع فحص وهو كل موضع يسكن

علمت كلفي بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه لانهن كن عدداً كثيراً وانه كلهن ينتقلن من باب الى باب لسبب الاطلاع من بعض الابواب على جهات لايطلع من غيرها عليها ، واعلم ان قيافة النساء في من يميل اليهن اشد من قيافة مدلج في الآثار ثم نزلن الى البستان ورعن بمحاثرنا وكراثنا الى سيدتها في سماع غنائها فامرتها فاخذت العود وسوته بحضر وصحل لاعهد لي بمثله وان الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنة ثم اندفعت تغني بابيات العباس ابن الاحنف حيث يقول .

اني طربت الى شمس اذا غربت كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة في خلق جارية كأن اعطافها طي الطوامير
ليست من الانس الا في مناسبة ولا من الجن الا في التصاوير
فالوجه جوهرة والجسم عبهرة والريح عنبرة والكل من نور
كأنها حين تخطو في مجاسدها(١) تخطو على البيض اوحد القوارير

فلعمرى لكأن المضراب انما يقع على قلبي ومانسيت ذلك اليوم ولا انساه الى يوم مفارقتي الدنيا وهذا اكثر ماوصلت اليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها وفي ذلك اقول :

لاتلمها على النفار ومنع الوصل كم ماذا لها سكير
هل يكون الهلال غير بعيد او يكون الغزال غير شرود

واقول :

منعت جمال وجهك مقلتيا ولفظك قد ضننت به عليا
أراك نذرت للرحمن صوماً فلست تكلمين اليوم حيا
وقد غنيت للعباس شعراً هنيئاً ذا لعباس هنيا

---

(١) المجسد : كبرد ثوب يلي الجسد « قاموس »

فلو يلقاك عباس لاضحى   لمود قالياً وبكم شجيا

ثم انتقل ابي رحمه الله من دورنا المحدث (١) بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة الى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام امير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت انا بانتقاله وذلك في جمادي الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ولم تنتقل هي بانتقالنا لامور اوجبت ذلك ثم شغلنا بعد قيام امير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء ارباب دولته وامتحنا بالاعتقال والترقيب والاغرام الفادح والاستتار وارزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا الى ان توفي ابي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الاحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين واربعمائة واتصلت بنا تلك الحال بعده الى ان كانت عندنا جنازة لبعض اهلنا فرأيتها — وقد ارتفعت الواعية (٢) — قائمة في المأتم وسط النساء في جملة البواكي والنوادب فلقد اثارت وجداً دفيناً وحركت ساكناً وذكرتني عهداً قديماً وحباً تليداً ودهراً ماضياً وزمناً عافياً وشهوراً خوالي واخباراً بوالي ودهوراً فواني واياماً قد ذهبت وآثاراً قد دثرت ، وجددت احزاني وهيجت بلابلي على اني كنت في ذلك النهار مرزءاً مصاباً من وجوه وما كنت نسيت ولكن زاد الشجى وتوقدت اللوعة وتأكد الحزن وتضاعف الاسف واستجلب الوجد ما كان منه كامناً فلباه مجيباً فقلت قطعة منها :

سكي لميت مات وهو مكرم   وللحي أولى بالدموع الذوارف
فيا عجباً من آسف لامرء ثوى   وما هو للمقتول ظلماً بآسف

ثم ضرب الدهر ضربانه واجلينا عن منازلنا وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة اول المحرم سنة اربع واربعمائة وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية

---

(١) لعل الصواب . المحدثة (٢) الواعية : الصراخ والصوت « قاموس »

الواحدة ستة اعوام واكثر ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع واربعماية ونزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك وما كدت ان اميزها حتى قيل لي هذه فلانة وقد تغير اكثر محاسنها وذهبت نضارتها وفنيت تلك البهجة وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية وذبل ذلك النوار (١) الذي كان البصر يقصد نحوه متنوراً (٢) ويرتاد فيه متحيراً وينصرف عنه متحيراً فلم يبق الا البعض المنبيء عن الكل والخبر المخبر عن الجميع وذلك لقلة اهتبالها بنفسها وعدمها الصيانة التي كانت غذيت بها ايام دولتنا وامتداد ظلنا ولتبذلها في الخروج فيما لا بد لها منه مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك وانما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت ولذلك قال من قال ان حسن الرجال اصدق صدقاً واثبت اصلاً واعتق جودة لصبره على ما لو لقي بعضه وجوه النساء لتغيرت اشد التغير مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكن واني لو نلت منها اقل وصل وأنست لي بعض الانس لخولطت طرباً او لمت فرحاً ولكن هذا النفار الذي صبرني وأسلاني وهذا الوجه من اسباب السلو صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم اذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء ولا عهد يقتضي المحافظة ولا سلف دمام ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه

ومنها جفاء يكون من المحبوب فاذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المحب نفساً لها بعض الانفة والعزة تسلى واذا كان الجفاء يسيراً منقطعاً او دائماً او كثيراً منقطعاً احتمل وأغضي عليه حتى اذا كثر ودام فلا بقاء عليه ولا يلام الناسي لمن يحب في مثل هذا

ومنها الغدر وهو الذي لا يحتمله احد ولا يغضي عليه كريم وهو المسلاة

---

(١) النوار كرمان الزهر (٢) كذا في الاصل ولعل الصواب متنازاً اي مختبراً

حقاً ولايلام السالي عنه على اي وجه كان ناسياً او متصبراً بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه ولولا ان القلوب بيد مقلبها لا اله الاهو ولا يكلف المرء صرف قلبه ولا احالة استحسانه ولولا ذاك لقلت ان المتصبر في سلوه مع الغدر يكاد ان يستحق الملامة والتعنيف ولاادعى الى السلو عند الحر النفس وذوي الحفيظة والسري السجايا من الغدر فما يصبر عليه الا دنيء المروءة خسيس النفس نذله الهمة ساقط الانفة وفي ذلك اقول قطعة منها :

هواك فلست اقربه غرور ... وانت لكل من يأتي سرير

وما ان تصبرين على حبيب ... فحولك منهم عدد كثير

فلو كنت الامير لما تعاطى ... لقاءك خوف حتفهم الامير

رأيتك كالاماني ماعلى من ... يلم بها ولو كثروا غرور

ولاعنها لمن يأتي دفاع ... ولو حشد الانام لهم نفير

ثم سبب ثامن وهو لا من المحب ولا من المحبوب ولكنه من الله تعالى وهو اليأس وفروعه ثلاثة إما موت وإمابين لايرجى معه أوبة وإماعارض يدخل على المتحابين علة الحب التي من اجلها وثق المحبوب فيغيرها وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبر وعلى المحب الناسي في هذا الوجه المقسم الى هذه الاقسام الثلاثة من الغضاضة والذم واستحقاق اسم اللوم والغدر غير قليل وان لليأس لعملا في النفوس عجيباً وثلجاً لحر الاكباد كبيراً وكل هذه الوجوه المذكورة اولا وآخراً فالتأني فيها واجب والتربص على اهلها حسن فيما يمكن فيه التأني ويصح لديه التربص فاذا انقطعت الاطماع وانحسمت الآمال فحينئذ يقوم العذر وللشعراء فن من الشعر يذمون فيه الباكي على الدمن ويثنون على المثابر على اللذات وهذا يدخل في باب السلو ولقد اكثر الحسن بن هانيء في هذا الباب وافتخر به وهو كثيراً مايصف نفسه بالغدر الصريح في اشعاره تحكماً بلسانه واقتداراً على القول وفي مثل هذا اقول شعراً منه :

خل هذا وبادر الدهر واوحل في رياض الربى مطي القفار (١)
واحدها بالبديع من نغمات الـ ـعود كيما تحث بالمزمار
ان خيراً من الوقوف على الدا ر وقوف البنان بالاوتار
وبدا النرجس البديع كصب حائر الطرف مائلاً كالمدار
لونه لون عاشق مستهام وهو لاشك هائم بالبهار

ومعاذ الله ان يكون نسيان مادرس لنا طبعاً ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقاً وكساد الهمة لنا صفة ولكن حسبنا قول الله تعالى ومن اصدق من الله قيلاً في الشعراء ﴿ألم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لايفعلون﴾ فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ وكان سبب هذه الابيات ان صبا العامرية احدى كرائم المظفر عبد الملك ابن ابي عامر كلفتني صنعتها فاحتنها وكنت احلها ولها فيها صنعة في طريقة النشيد والبسيط رائقة جداً ولقد انشدتها بعض اخواني من اهل الأدب فقال مسروراً بها « يجب ان توضع هذه في جملة عجائب الدنيا »

فجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية: منها ثلاثة هي من المحب « اثنان منها » يذم السالي فيهما على كل وجه وهما الملل والاستبدال « وو[illegible] » يذم السالي فيه ولايذم المتصبر وهو الحياء كما قدمنا. واربعة من المحبوب منها واحد يذم الناسي فيه ولايذم المتصبر وهو الهجر الدائم. وثلاثة لايذم السالي فيها على اي وجه كان ناسياً او متصبراً وهي النفار والحياء والغدر ووجه ثامن وهو من قبل الله عز وجل وهو اليأس اما بموت او بين او آفة تزمن والمتصبر في هذه معذور

---

(١) لعل الصواب « العقار » بمعنى الخمر كما يدل عليه اعتذاره بعد بقوله: « ومعصية الله بشرب الراح » الخ ...

وعي احمرك اني جبلت على طبيعتين لايهني معهما عيش ابداً واني لارم بحياتي ماحتاجهما واود التثبت من هسي احياناً لافقد ما أنا لسببه من الكد من اجلهما وهما : وفاء لايشوبه تلون قد استوت فيه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر تولده الالفة التي لم تعرف بها هسي عما دريته ولاتتطلع الى عدم من صحبته . وعرة هس لاتقر على الضيم مهتمة لاقل مايرد عليها من تمير المعارف مؤثرة للموت عليه فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو الى هسها واني لاحي فاحتمل واستعمل الاناة الطويلة والتلوم الذي لايكاد يطيقه احد فادا افرط الامر وحميت هسي تصبرت وفي القلب مافيه وفي دلك اقول قطعة منها :

لي حلتان اداقاني الاسى جرعاً ومصا عيشتي واستهلكا جلدي

كلتاهما تطبي نحو حلتها كالصيد ينشب بين الذئب والاسد

وفاء صدق فما فارقت دا مقة فزال حزني عليه آخر الابد

وعرة لايحل الضيم ساحتها صرامة فيه بالاموال والولد

ومما يشبه مانحن فيه وان كان ليس منه ان رجلاً من احوابي كنت حللته من هسي محلها واسقطت المؤونة بيني وبينه واعددته دخراً وكنزاً وكان كثير السمع من كل قائل فدب دو النميمة بيني وبينه فحاكوا فيه وانجح سعيهم عنده فانقبض عما كنت اعهده فتربصت عليه مدة في مثلها أوب الغائب ورضي العاتب فلم يرد الا انقباضاً فتركته وحاله



(باب الموت)

وربما تزايد الامر ورق الطبع وعظم الاشفاق فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا وقد جاء في الآثار (من عشق فعف فمات فهو شهيد) وفي ذلك اقول قطعة منها :

فان أهلك هوى أهلك شهيداً   وان تمنن بقيت قرير عـين

روى لـنا هذا قوم ثقات   نوَوا بالصدق عن جرح ومين

ولقد حدثني ابو السرى عمار بن زياد صاحبنا عمن يثق به ان الـكاتب ابن قزمان امتحن بمحبة أسلم بن عبد العزيز اخي الحاجب هاشم بن عبد العزيز وكان اسلم غاية في الجمال حتى اضجعه لما به واوقعه في اسباب المنية وكان اسلم كثير الالمام به والزيارة له ولاعلم له بانه اصل دائه الى ان توفي اسفاً ودنفاً قال المخبر فاخبرت اسلم بعد وفاته بسبب علته وموته فتأسف وقال هلا اعلمتني فقلت ولم قال كنت والله اريد في صلته وما اكاد افارقه فما علي في ذلك ضرر وكان أسلم هذا من اهل الادب البارع والتفنن مع حظ من الفقه وافر وذا بصارة في الشعر وله شعر جيد وله معرفة بالاغاني وتصرفها وهو صاحب تآليف في طرائق غناء زرياب واخباره وهو ديوان عجيب جداً وكان احسن الناس خلقاً وخلقا وهو والد ابي الجعد الذي كان ساكناً بالجانب الغربي من قرطبة

واما اعلم جارية كانت لبعض الرؤساء فعرف عنها لشيء بلغه في جهتها لم يكن يوجب السخط فباعها فجزعت لذلك جزعاً شديـداً وما فارقها النحول والاسف ولابان عن عينها الدمع الى ان سلت وكان ذلك سبب موتها ولم تعش بعد خروجها عنه الا اشهراً ليست بالـكثيرة . ولقد اخبرتني عنها امرأة تثق بها أنها لقيتها وهي قد صارت كالخيال نحولا ورقة فقالت لها احسب هذا الذي

بك من محبتك لفلان فتنفست الصعداء وقالت والله لانسيته ابداً وان كان حياتي بلا سبب وما عاشت بعد هذا القول الا يسيراً

واما اخبرك عن ابي بكر اخي رحمه الله وكان متزوجاً عاتكة بنت قند صاحب الثغر الاعلى ايام المنصور ابى عامر محمد بن عامر وكانت التي لا مرمى وراءها في جمالها وكريم خلالها ولاتأتي الدنيا بمثلها في فضائلها وكانا في جد الصبى وتمكن سلطانه . يغضب كل واحد منهما الكلمة التي لاقدر لها فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب مدة ثمانية اعوام وكانت قد شفها حبه واضناها الوجد فيه وانحلها شدة كلفها به حتى صارت كالخيال المتوهم دنفاً لايلهيها من الدنيا شيء ولاتسر من اموالها على عرضها وتكاثرها بقليل ولا كثير اذ فاتها اتفاقه معها وسلامته لها الى ان توفي اخي رحمه الله في الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذي القعدة سنة احدى واربعمائة وهو ابن اثنين وعشرين سنة فما استكنت بعد بل عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول الى ان ماتت بعده بعام في اليوم الذي اكمل هو فيه تحت الارض عاماً . ولقد اخبرتني عنها امها وجميع جواريها انها كانت تقول بعده مايقوي صبري ويمسك رمقي في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته الا سروري وتيقني انه لايضمه وامرأة مضجع ابداً فقد امنت هذا الذي ما كنت اتخوف غيره واعظم آمالي اليوم اللحاق به . ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها وهي كذلك لم يكن لها غيره فكان كما قدرت عفا الله لها ورضي عنها

واما خبر صاحبنا ابى عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسن التميمي المعروف بابن الطبني فانه كان رحمه الله كأنه قد خلق الحسن على مثاله اوخلق من نفس كل من رآه(١) لم اشاهد له مثلًا حسناً وجمالا وخلقاً وعفة وتصاوناً

(١) فيه اشارة الى قول الشاعر :

كأنك من كل النفوس مركب فانت الى كل النفوس حبيب

وادماً وفهماً وحلماً ووفاء وسؤدداً وطهارة وكرماً. ودماثة وحلاوة ولباقة واغضاء وعقلاً ومروءة وديناً ودراية وحفظاً للقرآن والحديث والنحو واللغة وشاعراً مفلقاً وحسن الخط وبليغاً مفساً مع حظ صالح من الكلام والجدل وكان من غلمان ابي القاسم عبد الرحمن بن ابي يزيد الازدي استاذي في هذا الشأن وكان بينه وبين ابيه اثنا عشر عاماً في السن وكنت انا وهو متقاربين في الاسنان وكنا أليفين لا نفترق ، وخدنين لا يجري الماء بيننا صفاء الى ان القت الفتنة جرانها وارخت عزاليها ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة ونزولهم فيها وكان مسكن ابي عبد الله في الجانب الشرقي ببلاط مغيث وتقلبت بي الامور الى الخروج عن قرطبة وسكني مدينة المرية فكنا نتهادى النظم والنثر كثيراً وآخر ما خاطبني به رسالة في درجها هذه الابيات :

ليت شعري عن حبل ودك هل يمـ	ـسي جديداً لدي غير رثيث
وأراني أرى محياك يوماً	وأناجيك في بلاط مغيث
فلو ان الديار ينهضها الشو	ق أتاك البلاط كالمستغيث
ولو ان القلوب تسطيع سيراً	سار قلبي اليك سير الحثيث
كن كما شئت لي فاني محب	ليس لي غير ذكركم من حديث
لك عندي وان تناسيت عهداً	في صميم الفؤاد غير نكيث

فكنا على ذلك الى ان انقطعت دولة بني مروان وقتل سليمان الظافر امير المؤمنين وظهرت دولة الطالبية وبويع علي بن حمود الحسني المسمى بالناصر بالخلافة وتغلب على قرطبة وتملكها واستمر في قتاله اياها بجيوش المتغلبين والثوار في اقطار الاندلس وفي اثر ذلك نكبني خيران صاحب المرية اذ نقل اليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين — وقد انتقم الله منهم — عني وعن محمد ابن اسحق صاحبي — انا نسعى في القيام بدعوة الدولة الاموية فاعتقلنا عند نفسه اشهراً ثم اخرجنا على جهة التغريب فصرنا الى حصن القصر ولقينا صاحبه ابو القاسم

عبد الله بن هذيل التجيبي المعروف بابن المقفل فاقمنا عنده شهوراً في خير دار اقامة وبين خير اهل وجيران وعند احل الناس همة واكملهم معروفاً واتمهم سيادة ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور امير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد وسكناه بها فوجدت ببلنسية ابا شاكر عبد الرحمن بن محمد ابن موهب القبري صديقنا فنعى الي ابا عبد الله بن الطبني واخبرني بموته رحمه الله ثم اخبرني بعد ذلك بمدينة القاضي ابو الوليد يونس بن محمد المرادي وابو عمرو احمد بن محرز ان ابا بكر المصحف بن عبد الله الازدي المعروف بابن الفرضي حدثهما وكان والد المصحف هذا قاضي بلنسية ايام امير المؤمنين المهدي وكان المصحف لنا صديقاً وأخاً واليفاً ايام طلبنا الحديث على والده وسائر شيوخ المحدثين بقرطبة ، قالا : قال لنا المصحف سألت ابا عبد الله بن الطبني عن سبب علته وهو قد نحل وخفيت محاسن وجهه بالضنى فلم يبق الا عين جوهرها المخبر عن صفاتها السالفة وصار يكاد ان يطيره النفس وقرب من الانحناء والشجا باد على وجهه ونحن منفردان فقال لي نعم اخبرك اني كنت على باب داري بقديد الشماس في حين دخول علي بن حمود قرطبة والجيوش واردة عليها من الجهات تتسارب فرأيت في جملتهم فتى لم أقدر ان للحسن صورة قائمة حتى رأيته فغلب على عقلي وهام به لبي فسألت عنه فقيل لي هذا فلان ابن فلان من سكان جهة كذا ناحية قاصية عن قرطبة بعيدة المأخذ فيئست عن (١) رؤيته بعد ذلك ولعمري يا أبا بكر لافارقني حبه او يوردني رمسي فكان كذلك وانا اعرف ذلك الفتى وادريه وقد رأيته لكني اضربت عن اسمه لانه قد مات والتقى كلاهما عند الله عز وجل عفا الله عن الجميع هذا على ان ابا عبد الله اكرم الله نزله ممن لم يكن له وله قط ولافارق الطريقة المثلى ولاوطيء حراماً قط ولا قارف منكراً ولاأتى منهياً عنه يخل بدينه ومروءته ولاقارض من جفا عليه وما كان في طبقتنا

---

(١) لعل الصواب : من

مثله ثم دخلت انا قرطبة في خلافة القاسم بن حمود المأمون فلم اقدم شيئاً على قصد ابي عمرو القاسم بن يحيي التميمي اخي عبد الله رحمه الله فسألته عن حاله وعزيته عن اخيه وما كان اولى بالتعزية عنه مني ثم سألته عن اشعاره ورسائله اذ كان الذي عندي منه قد ذهب بالنهب في السبب الذي ذكرته في صدر هذه الحكاية فاخبرني عنه انه لما قربت وفاته وايقن بحضور المنية ولم يشك في الموت دعا بجميع شعره وبكتبي التي كنت خاطبته انا بها فقطعها كلها ثم امر بدفنها قال ابو عمرو فقلت له يا اخي دعها تبقى فقال اني اقطعها وانا ادري اني اقطع فيها ادباً كثيراً ولكن لو كان ابو محمد يعني حاضراً لدفعتها اليه تكون عنده تذكرة لمودتي ولكني لا اعلم اي البلاد اصبرته ولا أحي هو ام ميت وكانت بكتبي اتصلت به ولم يعلم مستقري ولا الى ما آل امري فمن مراثي له قصيدة منها :

لئن سترتك بطون اللحود فوجدي بعدك لا يستتر
قصدت ديارك قصد المشوق وللدهر فيها كرور ومر
فألفيتها منك قفراً خلاء فاسكبت عيني عليك العبر

وحدثني ابو القاسم الهمداني رحمه الله قال كان ممن سعداد(١) اخ لعبد الله ابن يحيي بن احمد بن دحون الفقيه الذي عليه مدار الفتيا بقرطبة وكان اعلم من اخيه واجل مقداراً ما كان في اصحابنا سعداد مثله وانه اجتاز يوماً بدرب قطنه في رقاق لاينفذ فدخل فيه فرأى في اقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه فقالت له ياهذا ان الدرب لاينفذ قال فنظر اليها فهام بها قال وانصرف الينا فتزايد عليه امرها وخشي الفتنة فخرج الى البصرة فمات بها عشقاً رحمه الله وكان فيما ذكر من الصالحين

---

(١) في المختار : (سعداد) (وسعداد) (وسعدان)

(حكاية) لم ازل اسمعها عن بعض ملوك البرابر ان رجلاً اندلسياً باع جارية كان يجد بها وجداً شديداً لفاقة اصابته من رجل من اهل ذلك البلد ولم يظن بائعها ان نفسه تتبعها ذلك التتبع فلما حصلت عند المشتري كادت نفس الاندلسي تخرج فأتى الى الذي ابتاعها منه وحكمه في ماله اجمع وفي نفسه فأبى عليه فتحمل عليه باهل البلد فلم يسعف منهم احد فكاد عقله ان يذهب ورأى ان يتصدى الى الملك فتعرض له وصاح فسمعه فامر بادخاله والملك قاعد في علية له مشرفة عالية فوصل اليه فلما مثل بين يديه اخبره بقصته واسترحمه وتضرع اليه فرق له الملك فأمر باحضار الرجل المبتاع فحضر فقال له هذا رجل غريب وهو كما تراه وانا شفيعه اليك فأبى المبتاع وقال انا اشد حباً لها منه واخشى ان صرفتها اليه ان استغيث بك غداً وانا في اسوأ من حالته فرام به الملك ومن حواليه في اموالهم فأبى ولج واعتذر بمحبته لها فلما طال المجلس ولم يروا منه البتة جنوحاً الى الاسعاف قال للاندلسي يا هذا مالك بيدي اكثر مما ترى وقد جهدت لك بأبلغ سعي وهو تراه يعتذر بانه فيها احب منك وانه يخشى على نفسه شراً مما انت فيه فاصبر لما قضى الله عليك فقال له الاندلسي فمالي بيدك حيلة قال له وهل هاهنا غير الرغبة والبذل ما استطيع لك اكثر فلما يئس الاندلسي منها جمع يديه ورجليه وانصب من اعلى العلية الى الارض فارتاع الملك وصرخ فابتدر الغلمان من اسفل فقضى انه لم يتأذ في ذلك الوقوع كبير أذى فصعد به الى الملك فقال له ماذا اردت بهذا فقال ايها الملك لاسبيل لي الى الحياة بعدها ثم هم ان يرمي نفسه ثانية فمنع فقال الملك الله اكبر قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة ثم التفت الى المشتري فقال ياهذا انك ذكرت انك اود لها منه وتخاف ان تصير في مثل حاله فقال نعم قال فان صاحبك هذا ابدى عنوان محبته وقذف نفسه يريد الموت لولا ان الله عز وجل وقاه فانت قم فصحح حبك وترام من اعلى هذه القصة كما

فضل صاحبك فان مت فأخلك وان عشت كنت اولى بالجارية اذ هي في يدك وينصي صاحبك عنك وان ابيت نزعت الجارية منك رغماً ودفعتها اليه فتمنع ثم قال أنراني فلما قرب من الباب ونظر الى الهوى تحته رجع القهقرى فقال له الملك هو والله ماقلت منهم ثم نكل فلما لم يقدم قال له الملك لاتتلاعب بنا ياغلمان خذوا بيديه وارموا به الى الارض فلما رأى العزمة قال ايها الملك قد طابت نفسي بالجارية فقال له جزاك الله خيراً فاشتراها منه ودفعها الى صاحبها وانصرفا

﴿ باب قبح المعصية ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى وكثير من الناس يطيعون انفسهم ويعصون عقولهم ويتبعون اهواءهم ويرفضون اديانهم ويتجنبون ماحض الله تعالى عليه ورغبه في الالباب السابقة من العفة وترك المعاصي ومقارعة الهوى ويخالفون الله ربهم ويوافقون ابليس فيما يحبه من الشهوة المعطبة فيواقعون المعصية في حبهم وقد علمنا ان الله عز وجل ركب في الانسان طبيعتين متضادتين احداهما لاتشير الا بخير ولاتحض الا على حسن ولايتصور فيها الا كل امر مرضي وهي العقل وقائده العدل والثانية ضد لها لاتشير الا الى الشهوات ولاتقود الا الى الردى وهي النفس وقائدها الشهوة والله تعالى يقول ﴿ ان النفس لأمارة بالسوء ﴾ وكنى بالقلب عن العقل فقال ﴿ ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد ﴾ وقال تعالى ﴿ وحبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم ﴾ وخاطب اولى الالباب فهاتان الطبيعتان قطبان في الانسان وهما قوتان من قوى الجسد الفعال بهما ومطرحان من مطارح شعاعات هذين الجوهرين الخفيين الرفيعين العلويين في كل جسد منهما حظه على قدر مقابلته لهما في تقدير الواحد الصمد تقدست اسماؤه حين خلقه وهيأه . فهما يتقابلان ابداً ويتنازعان دأماً فاذا غلب العقل

النفس ارتدع الانسان وقمع عوارضه المدحولة واستضاء بنور الله واتبع العدل
واذا غلبت النفس العقل عميت البصيرة ولم يصح الفرق بين الحسن والقبيح
وعظم الالتباس وتردى في هوة الردى ومهواة الهلكة وبهذا حسن الامر والنهي
ووجب الاكتمال وصح الثواب والعقاب واستحق الجزاء . والروح واصل بين هاتين
الطبيعتين وموصل مابينهما وحامل الالتقاء بهما . وان الوقوف عند حد الطاعة
لمعدوم الامع طول الرياضة وصحة المعرفة ونفاذ التمييز ومع ذلك اجتناب التعرض
للفتن ومداخلة الناس جملة والجلوس في البيوت ، وبالحرا ان تقع السلامة المضمونة
او يكون الرجل حصوراً لا ارب له في النساء ولاجارحة له تعينه عليهن قديماً
وورد (من وقي شر لقلقه وقبقبه وذبذبه فقد وقي شر الدنيا بحذافيرها) .
واللقلق اللسان والقبقب البطن والذبذب الفرج ولقد اخبرني ابو حفص الكاتب
هو من ولد روح بن زنباع الجذامي انه سمع بعض المتسمين باسم الفقه من اهل
الرواية المشاهير وقد سئل عن هذا الحديث فقال القبقبة الطبيخ . وحدثنا احمد
ابن محمد بن احمد ، ثنا وهب بن مسرة ومحمد بن ابي دليم عن محمد بن وضاح
عن يحيي بن يحيي عن مالك بن انس عن زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث طويل (من وقاه الله شر اثنتين
دخل الجنة) فسئل عن ذلك فقال (مابين لحييه ومابين رجليه) وإني لاسمع
كثيراً ممن يقول : الوفاء في قمع الشهوات في الرجال دون النساء فاطيل العجب
من ذلك وان لي قولا لااحول عنه : الرجال والنساء في الجنوح الى هذين
الشيئين سواء ومارجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم من
مانع الا وقع في شرك الشيطان واستهوته المعاصي واستفزه الحرص وتغوله الطمع
وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة الا وأمكنته حتما مقضياً وحكماً نافذاً
لامحيد عنه البتة

ولقد اخبرني ثقة صدق من اخواني من اهل التهم في الفقه والكلام والمعرفة

وذو صلاة في دينه انه احب جارية مدنية ادبية ذات جمال بارع قال: فعرضت لها فنفرت ثم عرضت فأبت فلم يزل الامر يطول وحبها يزيد وهي مما لاتطيع البتة الى ان حملني فرط حبي لها مع عمي الصبي على ان نذرت اني متى نلت منها مرادي ان اتوب الى الله توبة صادقة قال فما مرت الايام والليالي حتى اذعنت بعد شماس ونفار فقلت له اما فلان وفيت بنذرك فقال اي والله فضحكت وذكرت بهذه الفعلة ما لم يزل يتداول اسماعنا من ان في بلاد البربر التي تجاور اندلسنا يتوب(١) الفاسق على انه اذا قضى وطره ممن اراد ان يتوب الى الله، فلا يمتنع من ذلك وينكرون على من تعرض له بكلمة ويقولون له أتحرم رجلا مسلما التوبة. قال ولعهدي بها تبكي وتقول والله لقد بلغني مبلغاً ماخطر قط لي ببال ولاقدرت ان احب اليه احداً. ولست ابعد ان يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً واعوذ بالله ان اظن غير هذا واني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة اعني الصلاح غلطاً بعيداً والصحيح في حقيقة تفسيرها ان الصالحة من النساء هي التي اذا ضبطت انضبطت واذا قطعت عنها الذرائع امسكت والفاسدة هي التي اذا ضبطت لم تنضبط واذا حيل بينها وبين الاسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في ان تتوصل اليها بضروب من الحيل. والصالح من الرجال من لايداخل اهل الفسوق ولا يتعرض من المناظرة الجالبة للاهواء ولا يرفع طرفه الى الصور البديعة التركيب والفاسق من يعاشر اهل النقص وينشر بصره الى الوجوه البديعة الصنعة ويتصدى للمشاهد المؤذية ويحب الخلوات المهلكات. والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لاتحرق من جاورها الا بان تحرك والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء. واما مرأة مهملة ورجل متعرض فقد هلكا وتلفا. ولهذا حرم على المسلم الالتذاذ بسماع

---

(١) لعلها (يتعهد) او مافي معناها

ممة امرأة احبية وقد جعلت النظرة الاولى لك والاخرى عليك . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد افطر) وان في ماورد من النهي عن الهوى نص التنزيل لشيئا مقنعاً وفي ايقاع هذه الكلمة اعني الهوى اسماً على معان واشتقاقها عند العرب وذلك دليل على ميل النفوس وهويها الى هذه المقامات . وان المتمسك عنها مقارع لنفسه محارب لها

وشيء اصفه لك تراه عياناً وهو اني مارأيت قط امرأة في مكان تحس ان رجلا يراها او يسمع حسها الا واحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل واتت بكلام زائد كانت عنه في غنية ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحاً فيها ظاهراً عليها لاخفاء به . والرجال كذلك اذا احسوا بالنساء . واما اظهار الزينة وترتيب المشي وايقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة فهذا اشهر من الشمس في كل مكان والله عز وجل يقول (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم) وقال تقدست اسماؤه (ولايضربن بارجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن) فلولا علم الله عز وجل برقة اغماضهن في السعي لايصال حبهن الى القلوب ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوى لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى وهذا حد التعرض فكيف بما دونه

ولقد اطلعت من سر معتقد الرجال والنساء في هذا على امر عظيم واصل ذلك اني لم احسن قط باحد ظناً في هذا الشأن مع غيرة شديدة ركبت في .

وحدثنا ابو عمرو احمد بن محمد بن احمد ، ثنا احمد ، ثنا محمد بن علي ابن رفاعة ، حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا ابو عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الغيرة من الايمان) فلم ازل باحثاً عن اخبارهن كاشفاً عن اسرارهن وكن قد أنسن مني بكتمان فكن يطلعنني

على غوامض امورهن ولولا ان اكون مسهاً على عورات يستعاذ بالله منها لاوردت من تنبيهن في الشر ومكرهن فيه عجائب تدهل الالباء

واني لاعرف هذا واتقه ومع هذا يعلم الله وكفى به عليهما اني بريء الساحة سليم الاديم صحيح البشرة نقي الحجرة واني اقسم بالله احل الاقسام اني ماحللت مئزري على فرج حرام قط ولايحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت الى يومي هذا والله المحمود على ذلك والمشكور فيا مضى والمستعصم فيما بقي

حدثنا القاضي ابو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري — وانه لافضل قاض رأيته — عن محمد بن ابراهيم الطليطلي عن القاضي عمر بكر بن العلاء في قول الله عز وجل ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ ان لبعض المتقدمين فيه قولا وهو ان المسلم يكون مخبراً عن نفسه بما انعم الله تعالى به عليه من طاعة ربه التي هي من اعظم النعم ولاسيا في المفترض على المسلمين اجتنابه واتباعه وكان السبب فيما ذكرته اني كنت وقت تأجج نار الصبى وشرة الحداثة وتمكن غرارة الفتوة مقصوراً محظراً على بين رقباء ورقائب ، فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت ابا علي الحسين بن علي الفاسي في مجلس ابا القاسم عبد الرحمن بن ابي يزيد الازدي شيخنا واستاذي رضي الله عنه وكان ابو على المذكور عاقلا عاملا عالماً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا واد . . الاخرة واحسبه كان حصوراً لانه لم تكن له امرأة قط ومارأيت مثله جملة علماً وعملاً ودنياً وورعاً فنفعني الله به كثيراً وعلمت موقع الاساءة وقبح المعاصي . ومات ابو علي رحمه الله في طريق الحج

ولقد ضمني المبيت ليلة في بعض الازمان عند امرأة من بعض معارفي مشهورة بالصلاح والخير والحزم ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمها معي النشأة في الصبى ثم غبت عنها اعواماً كثيرة . وكنت تركتها حين اعصرت (١)

---

(١) في الاصل « اعرب » والصواب ماصححناه

ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب فغاض وانساب وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت في سماء وجهها نجوم الحسن فاشرقت وتوقدت وانتشت في خديها ازاهير الجمال فنمت واعتمت فانت كما اقول :

خريدة صاغها الرحمن من نور ... جلت ملاحتها عن كل تقدير

لوجاءني عملي في حسن صورتها ... يوم الحساب ويوم النفخ في الصور

لكنت أحظى عباد الله كلهم ... بالحسنيين وقرب الخرد الحور

وكانت من اهل بيت صباحة وقد ظهرت منها صورة تحير الوصاف ، وقد طبق وصف شابها قرطبة فبت عندها ثلاث ليال متوالية ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية فلعمري لقد كاد قلبي ان يصبو ويثوب اليه مرفوض الهوى ويعاوده منسي الغزل ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفاً على لبي ان يرد هبه الاستحسان . ولقد كانت هي وجميع اهلها ممن لاتتعدى الاطماع اليهن ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل وفي ذلك اقول :

لاتتبع النفس الهوى ... ودع التعرض للمحن

ابليس حي لم يمت ... والعين باب للفتن

واقول :

وقائل لي هذا ظن يريبك عيبا ... فقلت دع عنك لومي أليس ابليس حيا

وما اورد الله تعالى علينا من قصة يوسف بن يعقوب وداود بن ايشي رسل الله عليهم السلام الا ليعلمنا نقصانا وفاقتنا الى عصمته وان بنيتنا مدخولة ضعيفة فاذا كانا صلى الله عليهما وهما نبيان رسولان ابناء انبياء رسل ومن اهل بيت نبوة ورسالة متكررين في الحفظ مغموسين في الولاية محفوفين بالكلاءة مؤيدين بالعصمة لايجعل للشيطان عليهما سبيل ولا فتح لوسواسه نحوهما طريق ولمعا حيث نص الله عز وجل علينا في قرآنه المنزل بالجبلة الموكلة والطبع البشري

والخلقة الاصيلة لايتعمد الخطيئة ولا القصد اليها اذ النبيون مبرؤون من كل ما خالف طاعة الله عز وجل لكنه استحسان طبيعي في النفس المصور فمن ذا الذي يصف نفسه يملكها ويتعاطى ضبطها الا بحول الله وقوته . واول دم سفك في الارض فدم احد ابني آدم على سبب المنافسة في النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (باعدوا بين انفاس الرجال والنساء) وهذه امرأة من العرب تقول وقد حملت من ذي قرابة لها حين سئلت : ما حملك يا هند فقالت قرب الوساد وطول السواد . وفي ذلك اقول شعراً منه :

لاتلم من عرض النفس لما ليس يرضى غيره عند المحن
لا تقرب عرفجاً من لهب ومتى قربته قامت دخن
لا تصرف ثقة في احد فسد الناس جميعاً والزمن
خلق النسوان للفحل كما خلق الفحل بلا شك لهن
كل شكل يشتهي شكله لاتكن عن احد تبني الظنن
صفة الصالح من ان صنته عن قبيح اظهر الطوع الحسن
وسواه من اذا ثقفته اعمل الحيلة في خلع الرسن

واني لاعلم فتى من اهل الصيانة قد اولع بهوى له فاختار بعض اخوانه فوجده قاعداً مع من كان يحب فاستحله الى منزله فاجابه الى منزله بامتثال المسير بعده فمضى داعيه الى منزله وانتظره حتى طال عليه التربص فلم يأته فلما كان بعد ذلك اجتمع به داعيه فعدد عليه واطال لومه على اخلافه موعده فاعتذر وورى فقلت انا للذي دعاه انا اكشف عذره صحيحاً من كتاب الله عز وجل اذ يقول (ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا اوزاراً من زينة القوم) . فضحك من حضر وكلفت ان اقول في ذلك شيئاً فقلت :

وجرحك لي جرح جار فلا تلم ولكن جرح الحب غير جبار
وقد سارت الخيلان وسط رياضه كنيلوفر حفته روض بهار

وكم قال لي من مت وجداً بحبه | مقالة محلول المقالة زاري
وقد كثرت مني اليه مطالب | ألح عليه تارة وأداري
أما في التواني مايبرد غلة | ويذهب شوقاً في ضلوعك ساري
فقلت له لو كان ذلك لم تكن | عداوة جار في الانام لجار
وقد تتراءى السكران لدى الوغى | وبينهما للموت سيل بوار

ولي كلمتان قلتهما معرضاً بل مصرحاً برجل من اصحابنا كنا نعرفه كلنا من اهل الطلب والعناية والورع وقيام الليل واقتفاء آثار النساك وسلوك مذاهب المتصوفين القدماء باحثاً مجتهداً ولقد كنا نتحسب المراح بحضرته فلم يمض الزمن حتى مكن الشيطان من نفسه وفتك بعد لباس النساك وملك ابليس من خطامه فسول له الغرور وزين له الويل والثبور وأجره رسنه بعد الله واعطاه ناصيته بعد شماس فصحب في طاعته واوضع واشتهر بعد ماذكرته في بعض المعاصي القبيحة الوضرة ولقد اطلت ملامه وتشددت في عذله اذ اعلن بالمعصية بعد استتار الى ان افسد ذلك ضميره علي وحنثت نيته لي وتربص بي الدوائر السوء وكان بعض اصحابنا يساعده بالكلام استجراراً اليه فيأنس به ويظهر له عداوتي الى ان اظهر الله سريرته فعلمها البادي والحاضر وسقط من عيون الناس كلهم بعد ان كان مقصداً للعلماء ومنتاباً للفضلاء ورذل عند اخوانه جملة اعاذنا الله من البلاء وسترنا في كفايته ولاسلبنا مابنا من نعمته فيأسوءاه لمن بدأ بالاستقامة ولم يعلم ان الخذلان يحل به وان العصمة ستفارقه لا اله الا الله ما اشنع هذا وافظعه لقد دهمته احدى بنات الحرس والقت عصاها به ام طبق من كان لله اولاً ثم صار للشيطان آخراً ومن احدى الكلمتين :

اما العلام فقد جاءت فضيحته | وانه كان مستوراً فقد هتكا
مازال يضحك من اهل الهوى عجباً | فالآن كل جهول منه قد ضحكا
اليك لاتلح صباً هائماً كلفاً | يرى التهتك في دين الهوى نسكا

ذو محبر وكتاب لا يفارقه ... نحو المحدث يسعى حيث ما سلكا
فاعتاض من سمر اقلام بان فتى ... كأنه من لجين صيغ او سبكا
يا لائمي سفهاً في ذاك قل فلم ... تشهد حنيني يوم الملتقى اشتكا
دعني ووردي في الآثار اطلبه ... اليك عني كذا لا اتبعي التركا
اذا تعففت عف الحب عنك وان ... تركت يوماً فان الحب قد تركا
ولا تحل من الهجران منعقداً ... الا اذا ما حللت الازر والتككا
ولا تصحح للسلطان مملكة ... او تدخل البرد عن اعاده السككا
ولا سير كثير المسخ يذهب ما ... يعلو الحديد من الاصداء ان سبكا

وكان هذا المذكور من اصحابنا قد احكم القرآات احكاماً جيداً واختصر كتاب الانبارى في الوقف والابتداء اختصاراً حسناً اعجب به من رآه من المقرئين وكان دائماً على طلب الحديث وتقييده (واكثر دهره) هو المتولى لقرآءة مايسمعه على الشيوخ المحدثين مثاراً على النسخ مجتهداً به فلما امتحن بهذه البلية مع بعض العلماء رفض ما كان معتنياً به وباع اكثر كتبه واستحال استحالة كلية نعوذ بالله من الخذلان وقلت فيه كلمة وهي الثالثة للكلمة التي ذكرت منها في اول خبره ثم تركتها وقد ذكر ابو الحسين احمد بن يحيى ابن اسحق الرويدي في كتاب اللفظ والاصلاح ان ابراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة مع علو طبقته في الكلام وتمكنه وتحكمه في المعرفة تسبب الى ماحرم الله عليه من فتى نصراني عشقه بان وضع له كتاباً في تفضيل التثليث على التوحيد فاعوذاه عبادك يارب من تولج الشيطان ووقوع الخذلان وقد يعظم البلاء وتكلب الشهوة ويهون القبيح ويرق الدين حتى يرضى الانسان في حب وصوله الى مراده بالقبائح والفضائح كمثل مادهم عبيد الله بن يحيى الازدي المعروف بابن الحريري فانه رضي باهمال داره واباحة حريمه والتعريض بأهله طمعاً في الحصول على بغيته ممن كان علقه نعوذ بالله من الضلال ونسأله الحياطة وتحسين آثارنا

واطالة احبارنا حتى لقد صار المسكين حديثاً تسمر به المحافل وتصاغ فيه الاشعار وهو الذي تسميه العرب الديوث (وهو مشتق من التديث وهو التسهيل وما بعد تسهيل من تسمح نفسه بهذا الشأن تسهيل ومنه بعير مديث اي مذلل) ولعمري ان الغيرة لتوجد في الحيوان بالخلقة فكيف وقد أكدتها عندنا الشريعة وما بعد هذا مصاب . ولقد كنت اعرف هذا المذكور مستوراً الى ان استهواه الشيطان ونعوذ بالله من الخذلان ، وفيه يقول عيسى بن محمد ابن محمل الخولاني :

باجاعلاً اخراج حر نسائه ... شركاً لصيد جآذر الغزلان

اني أرى شركا يمزق ثم لا ... تحظى بغير مذلة الحرمان

واقول انا ايضاً :

أباح ابو مروان حر نسائه ... لينال مايهوى من الرشاء الفرد

فعاينته الديوث في قبح فعله ... فأنشدني انشاد مستنصر جلد

لقد كنت ادركت المنى غير أنني ... يعيرني قومي بادراكها وحدي

واقول ايضاً :

رأيت الحروري فيما يعاني ... قليل الرشاد كثير السفاه

يبيع ويبتاع عرضاً بعرض ... أمور وجدك ذات اشتباه

ويأخذ فيماً باعطاه فاه ... الاهكذا فليكن ذوالدواهي

ويبدل ارضاً تعدى النبات ... بأرض تحف بشوك العضاه

لقدحاب في تجره ذو ابتياع ... بهب الرياح بمجرى المياه

ولقد سمعته في المسجد الجامع يستعيذ بالله من العصمة كما يستعاذ به من الخذلان ومما يشبه هذا اني اذكر اني كنت في مجلس فيه اخوان لنا عند بعض مياسير اهل بلدنا فرأيت بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة ايضاً من اهل صاحب المجلس امراً انكرته وغمزاً استنشعته وخلوات الحين بعد الحين

وصاحب المجلس كالعائب او النائم فنبهته بالتعريض فلم ينتبه وحركته بالتصريح فلم يتحرك فجعلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن وهما هذان :

ان اخوانه المقيمين بالأنـ ـس أتوا للرثاء لاللغنـاء
قطعوا امرهم وانت حمار موقر من بلادة وغبـاء

واكثرت من انشادهن حتى قال لي صاحب المجلس قد امللتنا من سماعها فتفضل متركها او انشاد غيرها فامسكت وانا لا ادري أغافل هو ام متغافل وما اذكر اني عدت الى ذلك المجلس بعدها وقلت فيه قطعة منها :

انت لاشك احسن الناس ظناً ويقيـناً ونيـة وضمـيرا
فاتقه ان بعض من كان بالانـ ـس جليساً لنـا يساوي كثيراً
ليس كل الركوع فاعلم صلاة لا ولا كل ذي لحـاظ بصيراً

وحدثني ثعلب بن موسى الكلاداني قال حدثني سليمان بن احمـد الشاعر قال حدثتني امرأة اسمها هند كنت رأيتها في المشرق وكانت قد بحت خمس حجات وهي من المتعبدات المجتهدات قال سليمان فقالت لي يا ابن اخي لاتحسن الظن بامرأة قط فاني احدثك عن نفسي بما يعلمه الله عز وجل . ركبت البحر منصرفة من الحج وقد رفضت الدنيا وانا خامسة خمس نسوة كلهن قد حججن وصرنا في مركب في بحر القلزم (١) وان للشعراء من لطف التعريض عن الكناية لمحاً ومن بعض ذلك قولي حيث اقول :

أماني وماء المزن في الجو يسفك كمحض لجين اذ يعد ويسبك
هلال الدياجي المحطم نحو افقه فقل في محب دل ماليس يدرك
وكان الذي ان كنت لي عنه سائلا فمالي جواب غير اني أضحك
افرط سروري حتى عنه بائناً فيا عجبـاً من موقن يتشكك

---

(١) ثم ذكرت قصة تحمل على اساءة الظن بالمرأة

واقول ايضاً قطعة منها :

أتيتني وهلال الجو مطلع | قبل قرع الصارى للنواقيس
كحاجب الشيخ عم الشيب اكثره | وأخمص الرجل في لطف وتقويس
ولاح في الافق قوس الله مكتسباً | من كل لون كأذناب الطواويس

وان فيما يبدو الناس تمادي المتواصلين في غير ذات الله تعالى بعد الالفة وتدابرهم بعد الوصال وتقاطعهم بعد المودة وتباغضهم بعد المحبة واستحكام الضغائن وتأكد السخائم في صدورهم لكاشفاً ناهياً لو صادف عقولا سليمة وآراء نافذة وعزائم صحيحة فكيف بما اعدالله لمن عصاه من النكال الشديد يوم الحساب وفي دار الجزاء ومن الكشف على رؤوس الخلائق ﴿ يوم تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ جعلنا الله ممن يفوز برضاه ويستحق رحمته ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل صهدتها اصفى من الماء وألطف من الهواء واثبت من الجبال واقوى من الحديد واشد امتزاجاً من اللون في الملون واشد استحكاماً من الاعراض في الاجسام واضوأ من الشمس واصح من العيان واثقب من النجم واصدق من كدر القطا واعجب من الدهر واحسن من البر واجمل من وجه ابى عامر والذ من العافية واحلى من المنى وادنى من النفس واقرب من النسب وارسخ من النقش في الحجر ثم لم البث ان رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة اشنع من الموت وانفذ من السهم وامر من السقم واوحش من زوال النعم واقبح من حلول النقم وامضى من عقم الرياح واضر من الحمق وادهى من غلبة العدو واشد من الاسر واقسى من الصخر وافضح من كشف الاستار وانأى من الجوزاء واصعب من معاناة السماء واكثر من رؤية المصاب واشنع من حرق العادات واقطع من شماتة الاعداء واشنع من السم الزعاف وما لايتولد مثله عن الذحول والتراث وقتل الآباء وسبي الامهات وتلك عادة الله

في اهل الفسق القاصدين سواء الآمين غيره وذلك قوله عز وجل (ياليتني لم اتخذ فلاناً خليلا لقد اضلني عن الذكر بعد اذ جاءني) فيجب على اللبيب الاستجارة بالله مما يورط فيه الهوى فهذا خلف مولى يوسف بن قمقام القائد المشهور كان احد القائمين مع هشام بن سليمان بن الناصر فلما اسر هشام وقتل وهرب الذين وازروه فر خلف في جملتهم ونجا فلما اتى القسطلات لم يطق الصبر عن جارية كانت له بقرطبة فكر راجعاً فظفر به امير المؤمنين المهدي فامر بصلبه فلقد رأيته مصلوباً في المرج على النهر الاعظم وكأنه القنفذ من النبل ولقد اخبرني ابو بكر محمد بن الوزير عبد الرحمن بن الليث رحمه الله ان سبب هروبه الى محلة البرابر ايام تحوطهم مع سليمان الظافر انما كان لجارية يكلف بها تصيرت عند بعض من كان في تلك الناحية ولقد كاد ان يتلف في تلك السفرة وهذان الضلال وان لم يكونا من جنس الباب فانهما شاهدان على مايقود اليه الهوى من الهلاك الخاسر الظاهر الذي يستوي في فهمه العالم والجاهل فكيف من الفضيحة التي لايفهمها من ضعفت بصيرته ولايعول امره خلوت فهو وان انفرد فمرأى ومسمع من علام الغيوب (الذي يعلم خائنة الاعين وماتخفي الصدور) (ويعلم السر وأخفى) (وما يكون من نجوى ثلاثة الاهو رابعهم ولاخمسة الاهو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اينما كانوا وهو عليم بذات الصدور) وهو عالم الغيب والشهادة (ويستخفون من الناس ولايستخفون من الله وهو معهم) وقال (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) وليعلم المستخف بالمعاصي المتكل على التسويف المعرض عن طاعة ربه ان ابليس كان في الجنة مع الملائكة المقربين فلمعصية واحدة وقعت منه استحق لعنة الابد وعذاب الخلد وصير شيطاناً رجيما وابعد عن رفيع المكان وهذا آدم صلى الله عليه وسلم بذنب واحد اخرج من الجنة الى شقاء

الدنيا ونكدها ولولا انه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه لكان من الهالكين افترى هذا المغتر بالله ربه وبأملائه ليزداد إثماً يظن انه اكرم على خالقه من ابيه آدم الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه واسجد لهم ملائكته الذين هم افضل خلقه عنده او عقابه اعز عليه من عقوبته اياه ، كلا ولكن استعذاب التمني واستبطاء مركب الصحر وسخف الرأي قائدة اصحابها الى الوبال والخزي ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجر من نهي الله تعالى ولاخائف من غليظ عقابه لكان في قبيح الاحدوثة عن صاحبه وعظيم التظلم الواقع في نفس فاعله اعظم مانع واشد رادع لمن نظر بعين الحقيقة واتبع سبيل الرشد فكيف والله عز وجل يقول (ولايقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً) حدثنا الهمداني في مسجد القمري بالجانب الغربي من قرطبة سنة احدى واربعمائة حدثنا ابن سويه وابو اسحق البلخي بخراسان سنة خمس وستين وثلاثمائة قالا ثنا محمد ابن يوسف ثنا محمد بن اسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا جرير عن الاعمش عن ابي وائل عن عمرو بن شرحبيل قال قال عبد الله وهو ابن مسعود قال رجل يارسول الله اي الذنب اكبر عند الله قال (ان تدعو لله نداً وهو خلقك قال ثم اي قال ان تقتل ولدك ان يطعم معك قال ثم اي قال ان تزاني حليلة جارك) فانزل الله تصديقها (والذين لايدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولايزنون) الآية . وقال عز وجل (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولاتأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله) الآية . حدثنا الهمداني عن ابي اسحق البلخي وابن سويه عن محمد بن يوسف عن محمد بن اسماعيل عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب الزهري عن ابي بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام وسعيد بن المسيب المخزوميين وابي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ان رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال (لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) وبالسند المذكور الى محمد ابن اسماعيل عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن ابى سلمة وسعيد بن المسيب عن ابي هريرة قال اتى رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فقال : (يارسول الله اني زنيت فاعرض عنه ثم رد عليه اربع مرات فلما شهد على نفسه اربع شهادات دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبك جنون قال لا قال فهل احصنت قال نعم فقال النبي صلى الله عليه وسلم اذهبوا به فارجموه) قال ابن شهاب فاخبرني من سمع جابر بن عبد الله قال كنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى فلما ادلقته الحجارة هرب فادركناه بالحرة فرجمناه حدثنا ابو سعيد مولى الحاجب جعفر في المسجد الجامع بقرطبة عن ابي بكر المقرىء عن ابي جعفر النحاس عن سعيد بن بشر عن عمرو ابن رافع عن منصور عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد وتغريب سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم) فيا لشنعة ذنب انزل الله وحيه مبيناً بالتشهير لصاحبه والعنف بفاعله والتشديد لمقترفه وتشدد في ان لايرحم الا بحضرة اوليائه عقوبة رجمه وقد اجمع المسلمون اجماعاً لاينقضه الا جاحد أن الزاني المحصن عليه الرجم حتى يموت فيالها قتلة ما اهولها وعقوبة ما افظعها واشد عذابها وابعدها من الاراحة وسرعة الموت وطوائف من اهل العلم منهم الحسن بن ابى الحسن وابن راهويه وداوود واصحابه يرون عليه مع الرجم جلد مائة ويحتجون عليه بنص القرآن وثبات السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبفعل علي رضي الله عنه بانه رجم امرأة محصنة في الزنا بعد ان جلدها مائة وقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله والقول بذلك لازم لاصحاب الشافعي لان زيادة العدل في الحديث مقبولة وقد صح في اجماع الامة المقبول بالكافة الذي يصححه العمل عند كل فرقة وفي اهل

كل محلة من محل اهل القبلة حاشى طائفة يسيرة من الخوارج لايعتد بهم انه لايحل دم امرىء مسلم الا بكفر بعد ايمان او نفس بنفس او بمحاربة لله ورسوله يشهر فيها سيفه ويسعى في الارض فساداً مقتلاً غير مدبر وبالزنا بعد الاحصان فان حد ماجعل الله مع الكفر بالله عز وجل ومحاربته وقطع حجته في الارض ومعاندته فيه لجرم كبير ومعصية شنعاء والله تعالى يقول ﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ . ﴿ والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة ﴾ وان كان اهل العلم اختلفوا في تسميتها فكلهم مجمع مهما اختلفوا فيه منها ان الزنا يتقدم فيها لا اختلاف بينهم في ذلك ولم يوعد الله عز وجل في كتابه بالنار بعد الشرك الا في سبع ذنوب وهي الكبائر الزنا احدها وقذف المحصنات ايضاً منها منصوصاً ذلك كله في كتاب الله عز وجل وقد ذكرنا انه لايجب القتل على احد من ولد آدم الا في الذنوب الاربعة التي قد تقدم ذكرها فاما الكفر منها فان عاد صاحبه الى الاسلام او بالذمة ان لم يكن مرتداً قبل منه ودريء عنه الموت واما القتل فان قبل الولي الدية في قول بعض الفقهاء او عفا في قول جميعهم سقط عن القاتل القتل بالقصاص واما الفساد في الارض فان تاب صاحبه قبل ان يقدر عليه هدر عنه القتل ولاسبيل في قول احد موافق او مخالف في ترك رجم المحصن ولاوجه لرفع الموت عنه البتة ومما يدل على شنعة الزنا ماحدثنا القاضي ابو عبد الرحمن ثنا القاضي ابو عيسى عن عبد الله بن يحيى عن ابيه يحيى بن يحيى عن الليث عن الزهري عن القاسم بن محمد بن ابي بكر عن عبيد بن عمير ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اضاف في زمانه ناساً من هذيل فخرجت جارية منهم فاتبعها رجل يريدها عن نفسها فرمته بحجر ففضت كبده فقال عمر : هذا قتيل الله والله لا يؤدى ابداً .

وما جعل الله عز وجل فيه اربعة شهود وفي كل حكم شاهدين الا حياطة

مه الا تشيع الفاحشة في عباده لعظمها وشنعتها وقبحها وكيف لاتكون شنيعة ومن قذف بها اخاه المسلم او اخته المسلمة دون صحة علم او تيقن معرفة فقد اتى كبيرة من الكبائر استحق عليها الشنار عدا ووجب عليه بنص التنزيل ان تضرب بشرته ثمانين صوتاً ومالك رضي الله عنه يرى ان لايؤخذ في شيء من الاشياء حد بالتعريض دون التصريح الا في قذف وبالسند المذكور عن الليث بن سعد عن يحي بن سعيد عن محمد بن عبد الرحمن عن امه عمرة بنت عبد الرحمن عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه امر ان يجلد الرجل قال لآخر ما ابي بزان ولا امي بزانية في حديث طويل وباجماع من الامة كلها دون خلاف من احد علمته انه اذا قال رجل لآخر يا كافر او ياقاتل النفس التي حرم الله لما وجب عليه حد احتياطاً من الله عز وجل الا شيت هذه العظيمة في مسلم ولا مسلمة ومن قول مالك رحمه الله ايضاً انه لاحد في الاسلام الا والقتل يغني عنه ويمسحه الا حد القذف فانه ان وجب على من قد وجب عليه القتل حد ثم قتل قال الله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً واولئك هم الفاسقون الاالذين تابوا) الآية . وقال تعالى (ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال المحصن والامة المذكوران في اللعان انهما موحشتان

حدثنا الهمداني عن ابى اسحق عن محمد بن يوسف عن محمد بن اسماعيل عن عبد العزيز بن عبد الله قال ثنا سليمان عن ثور بن يزيد عن ابى الغيث عن ابى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا وماهن يارسول الله قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق واكل الربى واكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)

وان في الزنا من اباحة الحريم وافساد النسل والتفريق بين الارواح الذي عظم الله امره مالايهون على ذي عقل او من له اقل خلاق ولولا مكان هذا المعنى من الانسان وانه غير مأمون العلة لما خفف الله عن البكرين وشدد على المحصنين . وهذا عندنا وفي جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز وجل حكماً باقياً لم ينسخ ولا ازيل فيترك الناظر لعباده الذي لم يشغله عظيم ما في خلقه ولايحجب قدرته كبير ما في عوالمه عن النظر لحقير ما فيها فهو كما قال عز وجل (الحي القيوم لاتأخذه سنة ولانوم) وقال (يعلم مايلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) (عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء)

وان اعظم ما يأتي به العبد هتك ستر الله عز وجل في عباده وقد جاء في حكم ابي بكر الصديق رضي الله عنه في ضربه الرجل الذي ضم صبياً حتى امنى ضرباً كان سبباً للمنية ومن اصحاب مالك رحمه الله باجتهاد الامير الذي ضرب صبياً مكن رجلا من تقبيله حتى امنى الرجل ضربه الى ان مات ماتسوي شدة دواعي هذا الشأن واسبابه . والترسل في الاجتهاد وان كنا لانراه فهو قول كثير من العلماء يتبعه على ذلك عالم من الناس واما الذي نذهب اليه فالذي حدثناه الهمداني عن البلخي عن الفربري عن البخاري قال ثنا يحيى بن سليمان ثنا ابن وهب قال اخبرني عمرو ان بكيراً حدثه عن سليمان بن يسار عن عبد الرحمن بن جابر عن ابيه عن ابي بردة الانصاري قال .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا يجلد فوق عشرة اسواط الا في حد من حدود الله عز وجل) وبه يقول ابو جعفر محمد بن علي النسائي الشافعي رحمه الله .

وافاعيل قوم لوط فشنيع بشيع قال الله تعالى : (أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من احد من العالمين) وقد قذف الله فاعليه بحجارة من طين مسومة .

ومالك رحمه الله يرى على الفاعل والمفعول به الرجم احصنا اولم يحصنا واحتج بعض المالكيين في ذلك بان الله عز وجل يقول في رجمه فاعليه بالحجارة : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ فوجب بهذا انه من ظلم الآن مثل فعلهم قربت منه . والخلاف في هذه المسألة ليس هذا موضعه وقد ذكر ابو اسحق ابراهيم بن السري ان ابا بكر رضي الله عنه احرق فيه بالنار وذكر ابو عبيدة معمر ابن المثنى اسم المحرق فقال هو شجاع بن ورقاء الاسدي احرقه بالنار ابو بكر الصديق لانه يؤتى في دبره كما تؤتى المرأة (١)

وان عن المعاصي لمذاهب للعقل واسعة فما حرم الله شيئاً الا وقد عوض عباده من الحلال ما هو احسن من المحرم وافضل لا اله الا هو . واقول في النهي عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ :

اقول لنفسي مامبين كحالك   وما الناس الا هالك وابن هالك(٢)

صن النفس عما عابها وارفض الهوى   فان الهوى مفتاح باب المهالك

رأيت الهوى سهل المبادي لذيذها   وعقباه مر الطعم ضنك المسالك

---

(١) قال ابن قيم الجوزيه في كتابه (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) صفحة ٣٩٧ طبع المكتبة العربية بدمشق مانصه :

وحرق اللوطية بالنار اربعة من الخلفاء ابو بكر الصديق وعلي بن ابي طالب وعبد الله بن الزبير وهشام بن عبد الملك

(٢) قال ابن خلكان :

رأيت في بعض الكتب ان المأمون كان يقول لو وصفت الدنيا نفسها لما وصفت بمثل قول ابي نواس :

الا كل حي هالك وابن هالك   وذو نسب في الهالكين عريق

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدو في ثياب صديق

فما لذة الانسان والموت بعدها ولو عاش صنفي عمر نوح بن لامك

فلا تتبع داراً قليلاً لباثها فقد انذرتنا بالفناء المواشك

وما تركها الا اذا هي امكنت وكم تارك اضماره غير تارك

فما تارك الآمال محاً جؤاذراً كتارك هادات الصروع الحواشك

ومن قابل الامر الذي كان راعباً بشهوة مشتاق وعقل مسارك

لاحدي عباد الله بالفوز عنده لدى جنة الفردوس وفي الارائك

ومن عرف الامر الذي هو طالب رأى سيئاً ما في يدي كل مالك

ومن عرف الرحمن لم يعص أمره ولو انه يعطى جميع الممالك

سبيل التقى والنسك خير المسالك وسالكها مستبصر خير سالك

فقد فقد التنغيص من عاج دونها ولا طاب عيش لامرىء غير ناسك

وطوبى لأقوام يؤمون نحوها مخففة ارواح وليس عراتك

هم قعدوا على الغوص وفضلوا من سلاطين وامن صعالك

فعاشوا كما شاؤوا وماتوا كما اشتهوا وفازوا بدار الخلد خير المبارك

عصوا طاعة الاحساد في كل لذة سوى نحل طلة المعى هاتك

ولا استداد (١) الجسم ابقت اسمهم يعيشون عيشاً مثل عيش الملائك

و رب قدمهم ورد في صلاحهم وصل عليهم حيث حلوا وبارك

فما سر حدي لا تلي وتمري لنيل سرور الدهر فيا هالك

وانت متى دمرت سعيك في الهوى علمت بان الحق ليس كذلك

فقد بين الله الشريعة للورى بما بين من زهر النجوم الشوابك

فيا نفس جدي في خلاصك واسعدي بعاد السيوف المرهفات البواتك

فلو عمل الناس التفكر في الذي له خلقوا ما كان حي بضاحك

---

(١) كذا في الاصل ولعل الصواب اعداد

﴿ باب فضل التعفف ﴾

ومن افضل مايأتيه الانسان في حبه التعفف وترك ركوب المعصية والفاحشة وان لا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة وان لا يعصي مولاه المتفضل عليه الذي جعله مكاناً وأهلاً لامره ونهيه وارسل اليه رسله وجعل كلامه ثابتاً لديه عناية منه بنا واحساناً الينا وان من هام قلبه وشغل باله واشتد شوقه وعظم وجده ثم ظفر ورام هواه ان يغلب عقله وشهوته وان يقهر دينه ثم اقام العدل لنفسه حصناً وعلم انها النفس الامارة بالسوء وذكرها عقاب الله تعالى وفكر في اجترائه على خالقه وهو يراه وحذرها من يوم المعاد والوقوف بين يدي الملك العزيز الشديد العقاب الرحمن الرحيم الذي لا يحتاج الى بينة ، ونظر بعين ضميره الى انفراده عن كل مدافع بحضرة علام الغيوب ﴿ يوم لاينفع مال ولابنون الا من اتى الله بقلب سليم ﴾ ﴿ يوم تبدل الارض غير الارض والسموات ﴾ ﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امداً بعيداً ﴾ ﴿ يوم عنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ ﴿ يوم وجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربك احداً ﴾ يوم الطامة الكبرى ، ﴿ يوم يتذكر الانسان ماسعى وبرزت الجحيم لمن يرى فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى ﴾ واليوم الذي قال الله تعالى فيه ﴿ وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ فعندها يقول العاصي ﴿ ياويلتي ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ﴾ فكيف بمن طوى قلبه على أحر من جمر الغضا وطوى كشحه على احد من السيف وتجرع غصصاً امر من الحنظل وصرف نفسه كرهاً عما

طمعت فيه وتيقنت ملوعه وتهيأت له ولم يحل دونها حائل لحري ان يسر عداً يوم البعث ويكون من المقربين في دار الجزاء وعالم الخلود وان يأمن روعات القيامة وهول المطلع وان يعوضه الله عن هذه القرحة الأمن يوم الحشر

حدثني ابو موسى هارون بن موسى الطبيب قال رأيت شاباً حسن الوجه من اهل قرطبة قد تعبد ورفض الدنيا وكان له اخ في الله قد سقطت بينهما مؤونة التحفظ فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده فعرضت لصاحب المنزل حاجة الى بعض معارفه بالبعد عن منزله فنهض لها على ان ينصرف مسرعاً ونزل الشاب في داره مع امرأته وكانت غاية في الحسن وترباً للضيف في الصبى فاطال رب المنزل المقام الى ان مشى العسس ولم يمكنه الانصراف الى منزله فلما علمت المرأة بفوات الوقت وان زوجها لايمكنه المجيء تلك الليلة تاقت نفسها الى ذلك الفتى فبرزت اليه ودعته الى نفسها ولاثالث لهما الا الله عز وجل فهم بها ثم ثاب اليه عقله وفكر في الله عز وجل فوضع اصبعه على السراج فتنفط ثم قال يانفس ذوقي هذا واين هذا من نار جهنم فهال المرأة ما رأت ثم عاودته فعاودته الشهوة المركبة في الانسان فعاد الى الفعلة الاولى فانبلج الصباح وسبابته قد اصطلمتها النار . أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ الا لفرط شهوة قد كلبت عليه اوترى ان الله تعالى يضيع له المقام كلا انه لأكرم من ذلك واعلم

ولقد حدثتني امرأة اثق بها انها علقها فتى مثلها في الحسن وعلقته وشاع القول عليهما فاجتمعا يوماً خاليين فقال هلمي نحقق مايقال فينا فقالت لاوالله لا كان هذا ابداً وانا اقرأ قول الله ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين ﴾ قالت فما مضى قليل حتى اجتمعا في حلال

ولقد حدثني ثقة من اخواني انه خلا يوماً بجارية كانت له معارك في الصبى

فتعرضت لبعض تلك المعاني فقال لها كلا ان من شكر نعمة الله فيما منحني من وصالك الذي كان اقصى آمالي ان اجتنب هواي لامره . ولعمري ان هذا لغريب فيما خلا من الازمان فكيف في مثل هذا الزمان الذي قد ذهب خيره وأتى شره وما اقدر في هذه الاخبار — وهي صحيحة — الا احد وجهين لاشك فيهما - إما طبع قد مال الى غير هذا الشأن واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه فهو لايجيب دواعي الغزل في كلمة ولا كلمتين ولاقي يوم ولايومين ولوطال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به لحادت طباعهم واجابوا هاتف الفتنة ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك نظراً لهم وعلماً بما في ضمائره من الاستعاذة به من القبائح واستدعاء الرشد لا اله الا هو ، واما بصيرة حضرت في ذلك الوقت وخاطر تجرد اقمعت به طوالع الشهوة في ذلك الحين لخير اراد الله عز وجل لصاحبه جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه آمين

وحدثني ابو عبد الله محمد بن عمرو بن مضاء عن رجال من بني مروان ثقات يسندون الحديث الى ابي العباس الوليد بن غانم انه ذكر ان الامام عبد الرحمن بن الحكم غاب في بعض غزواته شهوراً وثقف القصر بابنه محمد الذي ولي الخلافة بعده ورتبه في السطح وجعل مبيته ليلًا وقعوده نهاراً فيه ولم يأذن له في الخروج البتة ورتب معه في كل ليلة وزيراً من الوزراء وفتى من اكابر الفتيان يبيتان معه في السطح . قال ابو العباس فاقام على ذلك مدة طويلة وبعد عهده باهله وهو في سن العشرين او نحوها الى ان وافق مبيتي في ليلتي نوبة فتى من اكابر الفتيان وكان صغيراً في سنه وغاية في حسن وجهه قال ابو العباس فقلت في نفسي اني اخشى الليلة على محمد بن عبد الرحمن الهلاك بمواقعه المعصية وتزيين ابليس واتباعه له قال ثم اخذت مضجعي في السطح الخارج ومحمد في السطح الداخل المطل على حرم امير المؤمنين والفتى في الطرف الثاني القريب من المطلع فطفقت ارقبه ولا اغفل وهو يظن اني قد نمت ولايشعر

فاطلاعي عليه قال فلما مضى هزيع من الليل رأيته قد قام واستوى قاعداً ساعة لطيفة ثم تعوذ من الشيطان ورجع الى منامه ثم قام بعد حين ولبس قميصه وتستور ثم نزعه عن نفسه وعاد الى منامه ثم قام الثالثة ولبس قميصه ونزل رجليه من السرير وبقي كذلك ساعة ثم نادى الفتى باسمه فاجابه فقال له انزل عن السطح وابق في الفصيل الذي تحته فقام الفتى مؤتمراً له فلما نزل قام محمد واغلق الباب من داخله وعاد الى سريره قال ابو العباس فعلمت من ذلك الوقت ان لله فيه مراد خير

حدثنا احمد بن محمد بن الحسور عن احمد بن مطرف عن عبيد الله ابن يحيي عن ابيه عن ملك عن حبيب بن عبد الرحمن الانصاري عن حفص ابن عاصم عن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل الا ظله : امام عادل . وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه . ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا . ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال اني اخاف الله . ورجل تصدق صدقة فاخفى حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه) واني اذكر اني دعيت الى مجلس فيه بعض من تستحسن الابصار صورته وتألف القلوب اخلاقه للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه فسرعت اليه وكان هذا سحراً فبعد ان صليت الصبح واحدث ربي طرقي ففكر فسنحت لي ابيات ومعي رجل من اخواني فقال لي ما هذا الاطراق فلم اجبه حتى اكملتها ثم كتبتها ودفعتها اليه وامسكت عن المسير حيث كنت نويت ومن الابيات :

أرائقك حسن غيبه لك تأريق ... وتهوى وصل سره فيك تحريق
وقرب مزار يقتضي لك فرقة ... وشيكا ولولا القرب لم يك تفريق
ولذة طعم معقب لك علقماً ... وصاباً ووسخ في تضاعيفه صيق

ولو لم يكن جزاء ولاعقاب ولاثواب لوجب علينا افناء الاعمار واتعاب الابدان واجهاد الطاقة واستنفاد الوسع واستفراغ القوة في شكر الخالق الذي ابتدأنا بالنعم قبل استئهالها وامتن علينا بالعقل الذي به عرفناه ووهبنا الحواس والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات وصرف لنا السموات جارية بمنافعها ودبرنا التدبير الذي لو ملكنا خلقنا لم نهتد اليه ولانظرنا لانفسنا نظره لنا وفضلنا على اكثر المخلوقات وجعلنا مستودع كلامه ومستقر دينه وخلق لنا الجنة دون ان نستحقها ثم لم يرض لعباده ان يدخلوها الا باعمالهم لتكون واجبة لهم قال الله تعالى : ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ ورشدنا الى سبيلها وبصرنا وجه طلبها وجعل غاية احسانه الينا وامتنانه علينا حقاً من حقوقنا قبله ودينا لازماً له وشكرنا على ما اعطانا من الطاعة التي رزقنا قواها واثابنا فضله على تفضله هذا كرم لاتهتدي اليه العقول ولايمكن ان تكيفه الالباب ومن عرف ربه ومقدار رضاه وسخطه هانت عنده اللذات الذاهبة والحطام الفاني فكيف وقد اتى من وعيده ماتقشعر لسماعه الاجساد وتذوب له النفوس واورد علينا من عذابه ما لم ينته اليه امل فاين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم وما الرغبة في لذة داهبة لاتذهب الندامة عنها ولاتفنى التباعة منها ولايزول الخزي عن راكبها والى كم هذا التمادي وقد اسمعنا المنادي وكأن قد حدا بنا الحادي الى دار القرار فاما الى جنة واما الى نار الا ان التثبط في هذا المكان لهو الضلال المبين وفي ذلك اقول :

اقصر عن لهوه وعن طربه	وعف في جده وفي لعبه
فليس شرب المدام همته	ولا اقتناص الظبي من اربه
قد آن للقلب ان يفيق وان	يزيل ماقد علاه من حجبه
الهاه عما عهدت يصحبه	خيفة يوم تبلى السرائر به
يانفس جدي وشمري ودعي	عنك اتباع الهوى على لعبه
وسارعي في النجاة واجتهدي	ساعية في الخلاص من كربه

علي احطى بالمور فيه وأن   أنجو من ضيقه ومن لهبه

يا ايها اللاعب الجد به الـ   دهر اما تتقي شبا نكبه

كفاك من كل ماوعظت به   ما قد أراك الزمان من عجبه

دع عنك داراً تعى عصارتها   ومكتسباً لاعباً بمكتسبه

لم يصطرب في محلها احد   الا سبا حدها بمضطربه

من عرف الله حق معرفة   لوى وحل الفؤاد في رهبه

ما مقتضي الملك مثل خالده   ولا صحيح التقى كمؤتشبه

ولا تقي الورى كماسقهم   وليس صدق الكلام من كذبه

فلو أمنا من العقاب ولم   نخش من الله متقى غضبه

ولم نخف ناره التي خلقت   لكل جاني الكلام محتقبه

لكان فرضاً لزوم طاعته   ورد وفد الهوى على عقبه

وصحة الزهد في البقاء وان   يلحق . تمييدنا عرتقبه

فقد رأينا فعل الزمان باهـ   ـليه كفعل الشواظ في حطبه

كم متعب في الآله مهجته   راحته في الكريه من تعبه

وطالب باجتهاده زهر الـ   ـدنيا عداه المنون عن طلبه

ومدرك ما ابتغاه ذي جذل   حل به ما يخاف من سببه

وباحث جاهد لبغيته   فاعيا بحثه على عطبه

بينا ترى المرء سامياً ملكاً   صار الى السفل من ذرى رتبه

كالزرع للزرع فوقه عمل   ان يتم حسن النمو في قصبه

كم قاطع نفسه اسى وشجاً   في اثر جد يجد في هربه

أليس في ذاك زاجر عجب   يريد ذا اللب في جلى ادبه

فكيف والنار للمسيء اذا   عاج عن المستقيم من عقبه

ويوم عرض الحساب يفضحه الله ويبدي الخفي من ريبه

من قد حباه الاله رحمته   موصولة للمزيد من نشبه(١)
فصار من جهله يصرفها   فيما نهى الله عنه في كتبه
أليس هذا أحرى البادعداً   بالوقع في ويله وفي حربه
شكراً لرب لطيف قدرته   فيما نحل الوريد في كثبه
رازق اهل الزمان اجمعهم   من كان من عجمه ومن عربه
والحمد لله في تفضله   وقمعه للزمان في نوبه
أحدهما الارض والسماء ومن   في الجو من مائه ومن شهبه
فاسمع ودع من عصاه ناحية   لايحمل الحمل غير محتطبه

واقول ايضاً :

اعارتك دنيا مسترد معارها   عصارة عيش سوف يدوي اخضرارها
وهل يتمنى المحكم الرأي عيشة   وقد حان من دهم المنايا مرارها
وكيف تلذ العين هجعة ساعة   وقد طال فيما عاينته اعتبارها
وكيف تقر النفس في دار نقلة   قد استيقنت ان ليس فيها قرارها
وأنى لها في الارض خاطر فكرة   ولم تدر بعد الموت اين محارها
أليس لها في السعي للفوز شاغل   اما في توقيها العذاب ازدجارها
فجاءت نفوس قادها لهو ساعة   الى حر نار ليس يطفى أوارها
لها سائق حاد حثيث مبادر   الى غير ما أضحى اليه مدارها
تراد لامر وهي تطلب غيره   وتقصد وجهاً في سواه سفارها
أمسرعة فيما يسوء قيامها   وقد أيقنت ان العذاب قصارها
تطل مفروضاً وتنسى فضيلة   لقد شفها طغيانها واغترارها
الى مالها منه البلاء سكونها   وعما لها منه النجاح نفارها

---

(١) في الاصل : من سمه ، والصواب ماصححناه

وتعرض عن رب دعاها لرشدها ... وتتبع دنيا جد عنها فرارها
فيا ايها المغرور بادر برجعة ... فلله دار ليس تخمد نارها
ولا تتخير فانياً دون خالد ... دليل على محض العقول اختيارها
أتعلم ان الحق فيما تركته ... وتسلك سبلاً ليس يخفى عوارها
وتترك بيضاء المناهج ضلة ... لبهماء يؤدي الرحل فيها عثارها
تسر بلهو معقب بندامة ... اذا ما انقضى لا ينقضي مستثارها
وتفنى الليالي والمسرات كلها ... وتبقى تباعات الذنوب وعارها
فهل انت يا مغبون مستيقظ فقد ... تبين من سر الخطوب استتارها
فحل الى رضوان ربك واجتنب ... نواهيه اذ قد تجلى منارها
يجد غرور الدهر عنك بلاعب ... وتغري بدنيا ساء فيك سرارها
فكم امة قد غرها الدهر قبلنا ... وهاتيك منها مقفرات ديارها
تذكر على ماقد مضى واعتبر به ... فان المذكي للعقول اعتبارها
تحامى ذراها كل باغ وطالب ... وكان حماماً في الاعادي انتصارها
تواهت ببطن الارض وانبث شملها ... وعاد الى ذي ملكة إستعارها
وكم راقد في غفلة عن منية ... مشمرة في القصد وهو سعارها
ومظلمة قد نالها متسلط ... مذل بايد عند ذي العرش ثارها
أراك اذا حاولت دنياك ساعياً ... على انها ناد اليك ازورارها
وفي طاعة الرحمن يقعدك الونا ... وتبدي أناة لا يصح اعتذارها
تحاذر احواناً ستمضي وتنقضي ... وتنسى التي فرض عليك حذارها
كأني ارى منك اتترم ظاهراً ... ميناً اذا الاقدار حل اضطرارها
هناك يقول المرء من لي ماعصر ... مضت كان ملكاً في يدي خيارها
تنبه ليوم قد اظلك ورده ... عصيب بواقي النفس فيها احتضارها
تبرأ فيه منك كل مخالط ... وان من الآمال فيه انهيارها

فأودعت في ظلماء ضنك مقرها ... يلوح عليها للعيون اعبرارها

تنادى فلا تدري المنادي مفرداً ... وقد حط عن وجه الحياة خمارها

تنادي الى يوم شديد مفزع ... وساعة حشر ليس يخفى اشتهارها

اذا حشرت فيه الوحوش وجمعت ... صحائفنا واشتال فيها انتشارها

وزينت الجنات فيه وازلفت ... واذكي من نار الجحيم استعارها

وكورت الشمس المنيرة بالضحى ... واسرع من زهر النجوم انكدارها

لقد حل امر كان منه انتظامها ... وقد حل امر كان منه انتثارها

وسيرت الاجبال والارض بدلت ... وقد عطلت من مالكيها عشارها

فاما الدار ليس يخفى عيبها ... واما الدار لا يملك اسارها

بحضرة جبار رفيق معاقب ... فتحصى المعاصي كبرها وصغارها

ويندم يوم البعث جاني صغارها ... وتهلك اهليها هناك كبارها

ستغبط اجساد وتحيي نفوسها ... اذا ما استوى اسرارها وجهارها

اذا جاءهم عفو الاله وفضله ... واسكنهم داراً حلالٌ عقارها

سيلحقهم اهل الفسوق اذا استوى ... مخلدة سقى طرفها وحمارها

بهر بنو الدنيا بدنياهم التي ... يطن على اهل الحظوظ اقتصارها

هي الأم خير البر فيها عقوقها ... وليس بغير الذل يحمى ذمارها

فما نال منها الحظ الا مهينها ... وما الهلك الا قربها واعتبارها

تهافت فيها طامع بعد طامع ... وقد بان للب الذكي اختبارها

تطامن لعمر الحادثات ولا تكن ... لها ذا اعتبار يحتنيك عثارها

واياك ان تغتر منها بما ترى ... فقد صح في العقل الجلي عيارها(١)

رأيت ملوك الارض يبغون عدة ... ولذة نفس يستطاب اجترارها

---

(١) في الاصل عيارها والصواب ما صححناه

وخلوا طريق القصد في متناهم ... لتبمه الصفار حم صغارها
وان التي يعون سهح مقية ... مكين لطلاب الخلاص اختصارها
هل العر الاعمة صح صونها ... اذا صان همات الرحال انكسارها
وهل رابح الا امرؤ متوكل ... قنوع عي النفس ماد وقارها
ويلقى ولاة الملك حوفاً وفكرة ... تضيق بها درعاً ويعي اصطبارها
عياناً ري هذا ولكن سكرة ... أحاطت بنا ما ان يفيق خمارها
تدبر من الباني على الارض سقفها ... وفي علمه معمورها وقفارها
ومن يمسك الاجرام والارض امره ... ملا عمد يبنى عليه قرارها
ومن قدر التدبير فيها بحكمة ... فصح لديها ليلها ونهارها
ومن فتق الامواه في صفح وجهها ... فنها يغذى حبها وثمارها
ومن صير الالوان في نور نبتها ... فأشرق فيها وردها وبهارها
فمنهن مخضر يروق نصيصه ... ومنهن ما يعشى اللحاظ احمرارها
ومن فجر الانهار دون تكلف ... فثار من الصم الصلاب انفجارها
ومن رتب الشمس المنير ابيضاضها ... غدوا ويبدو بالعشي اصفرارها
ومن خلق الافلاك فامتد جريها ... واحكمها حتى استقام مدارها
ومن ان ألمت بالعقول روية ... فليس الى حي سواه افتقارها
تجد كل هذا راجع نحو خالق ... له ملكها منقادة وأئتمارها
أبان لنا الآيات في انبيائه ... فأمكن عند السحر فيها اقتدارها
فانطق افواهاً بالفاظ حكمة ... وما حلها انصارها واتصارها
وابرز من صم الحجارة ناقة ... واسمعهم في الحين منها حوارها
ليوقن اقوام وتكفر عصبة ... أتاها باسباب الهلاك قدارها
وشق لموسى البحر دون تكلف ... وبان من الامواج فيه انحسارها
وسلم من نار الانوق خليله ... فلم يؤده احراقها واعتزارها

وعجبى من الطوفان موحاً وقدهدت ... به أمـة امدا الفسوق شرارها
ومحـكن داوداً مايد ، واسه ... فتسيرها مـاـقي له وبدارها
ودلل جبـار البلاد لامره ... وعلم من طير السماء حوارها(١)
ومصل بالقرآن امة احمـد ... ومكن في اقصى البلاد معارها
وشق له بـدر السماء وحصـه ... بآيات حق لا يحل معـارها
وأنقدنا من كـفر ارمانـا به ... وكان على قطب الهلاك مـارها
فما بالنا لانترك الجهل ويحـا ... لنسلم من نار ترامى شراها

هنا اعزك الله انتهى ماتدكرته ايجاباً لك وتقمناً لمسرتك ووقوعاً عند امرك ولم امتنع ان اورد لك في هده الرسالة اشيـاء يدكرونها الشعراء ويكثرون القول فيها موفيات على وجوهها ومعردات في ابوابها ومتممات التصيير مثـل الافراط في صفة النحول وتشبيه الدموع بالامطار وانها تروي السمار وعدم النوم البتة وانقطاع الغداء جملة الا انها اشياء لاحقيقة لها وكذب لاوجه له ولـكل شيء حد وقد جعل الله لـكل شيء قدراً . والنحول قد يعظم ولو صـار حيث يصفونه لـكان في قوام الذرة او دونها ولخرج عن حد المعقول . والسهر قـد يتصل ليالي ولـكن لو عدم الغداء اسبوعين لهلك واننا قلنا ان الصبر عن النوم اقل من الصبر عن الطعام لان النوم غداء الروح والطعام غذاء الجسـد وان كانا يشتركان في كليهما ولـكنا حكينا على الاغلب ، واما الماء فقد رأيت ان ميسوراً البناء جارنا بقرطبة يصبر عن الماء اسبوعين في حمارة القيظ ويكتفي بما في غدائه من رطوبة .وحدثني القاضي ابو عبد الرحمن بن جحاف انه كان يعرف من كان لايشرب الماء شهراً وانما اقتصرت في رسالتي على الحقائق المعلومة التي لايمكن وجود سواها اصلاً وعلى اني قد اوردت من هذه الوجوه المذكورة

---

(١) الحوار المحاورة وفي الاصل حوارها بالحيم

اشياء كثيرة يكتفى بها لئلا اخرج عن طريقة اهل الشعر ومذهبهم وسيرى كثير من اخواننا اخباراً لهم في هذه الرسالة مكنياً فيها عن اسمائهم على ما شرطنا في ابتدائها . وانا استغفر الله تعالى مما يكتب الملكان ويحصيه الرقيبان من هذا وشبهه استغفار من يعلم ان كلامه من عمله ولكنه ان لم يكن من اللغو الذي لايؤاخذ به المرء فهو ان شاء الله من اللمم المعفو والا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب وعلى كل حال فليس من الكبائر التي ورد النص فيها

وانا اعلم انه سينكر على بعض المتعصبين على تأليفي لمثل هذا ويقول انه خالف طريقته وتجافى عن وجهته وما احل لاحد ان يظن في غير ماقصدته قال الله عز وجل ﴿ يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن إثم ﴾ وحدثني احمد بن محمد بن الجسوري ثنا بن ابي دليم ثنا بن وضاح عن يحيى ابن ملك بن انس عن ابي الزبير المكي عن ابي شريح الكعبي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ﴿ اياكم والظن فانه اكذب الكذب ﴾ وبه الى ملك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن الاعرج عن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً اوليصمت ﴾ وحدثني صاحبي ابو بكر محمد بن اسحق ثنا عبد الله بن يوسف الازدي ثنا يحيى بن عائذ ثنا ابو عدي عبد العزيز بن علي بن محمد بن اسحق بن الفرج الامام بمصر ثنا ابو علي الحسن بن قاسم بن دحيم المصري ثنا محمد بن زكرياء الغلابي ثنا ابو العباس ثنا ابو بكر عن قتادة عن سعيد بن المسيب انه قال : وضع عمرو بن الخطاب رضي الله عنه للناس ثماني عشر كلمة من الحكمة منها ﴿ ضع امر اخيك على احسنه حتى يأتيك مايغلبك عليه ﴾ ولاتظن بكلمة خرجت من في امريء مسلم شرا وانت تجد لها في الخير محملا . فهذا اعزك الله ادب الله وادب رسوله صلى الله عليه وسلم وادب امير المؤمنين وبالجملة فاني لا اقول

بالمراياة ولا امسك نسكاً اعجمياً ومن ادى الفرائض المأمور بها واجتنب المحارم المنهي عنها ولم ينس الفصل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الاحسان ودعني مما سوى ذلك وحسبي الله . والكلام في مثل هذا انما هو مع جلاء الذرع وفراغ القلب وان حفظ شيء وبقاء رسم وتذكر فائت لمثل خاطري لعجب على ما مضى ودهمني فانت تعلم ان ذهني متقلب وبالي مهصم عما نحن فيه من نبو الديار والجلاء عن الاوطان وتغير الزمان ونكبات السلطان وتغير الاخوان وفساد الاحوال وتبدل الايام وذهاب الوفر والخروج عن الطارف والتالد واقتطاع مكاسب الآباء والاجداد والغربة في البلاد وذهاب المال والجاه والفكر في صيانة الاهل والولد واليأس عن الرجوع الى موضع الاهل ومدافعة الدهر وانتظار الاقدار لاجعلنا الله من الشاكين الا اليه واعادنا الى افضل ماعودنا وان الذي ابقى لاكثر مما اخذ والذي ترك اعظم من الذي تحيف ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لاتجحد ولايؤدى شكرها والكل منحه وعطاياه ولاحكم لنا في انفسنا ونحن منه واليه منقلبنا وكل عارية فراجعة الى معيرها وله الحمد اولا وآخراً وعوداً وبدأ وانا اقول

جعلت اليأس لي حصناً ودرعاً	فلم البس ثياب المستضام
واكثر من جميع الناس عندي	يسير صانني دون الانام
اذا ماصح لي ديني وعرضي	فلست لما تولى ذا اهتمام
تولى الامس والغد لست ادري	أأدركه فيما ذا اغتنام

جعلنا الله واياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين آمين آمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما . كملت الرسالة المعروفة طوق الحمامة لابي محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم رضي الله عنه بعد....اكثر اشعارها واتقاء العيون منها تحسيناً لها واظهاراً لمحاسنها وتصغيراً لحجمها وتسهيلاً لوجدان المعاني الغريبة من لفظها بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه وفرغ من نسخها مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

صحيفة

اصلاح الخطأ وبيان الصواب

ص	س	الخطأ	الصواب
١	٢٠	حيره	حيره
٥	١١	تروحها	تزوجها
١٦	٨	ان	بن
..	٢٣	حقر	حقرا
١٨	٨	الى	لي
٢٤	٢٢	سقاط	اسقاط
٢٨	٨	مص	مص
٣٠	١	احدهما	احداهما
٣٦	١٩	يصع	نصع
٣٧	١٤	يصرم	يتصرم
..	٢٠	صفاه	صفاته
٣٩	٤	الا ف	الاف
٤٠	٦	وحماه	وجماه
..	٢٠	اى	اي
٤١	١٤	عقها	عتقها
..	٢٠	الري الرد	الري
٤٣	١٤	الصا	المصا
٤٥	١٥	ومحد	ومجد
٤٦	٦	طعرت	ظفرت
٤٨	٢٠	الحوارث	الحوادث

الجديد من مطبوعاتنا

أئمة الأدب

عنوان لرسائل متسلسلة في تراجم اعلام الادب وما
قيل فيهم ودراسة ادبهم وشواهد اقوالهم وقد صدر منها :

١ —



٢ —



الاستاذ الكبير خليل مردم بك اشهر من ان يعرف في هذه الكلمة ، وهو الاديب البارع في الابداع ، والمجيد في الوصف ، تقرأ شعره فترى فيه اسمى العواطف ، واجمل الصور ، في خير الاساليب واخف الاوزان ... وتقرأ دراسته وتحليله فترى مرآة يتمثل فيها روح من يدرسه او يحلله ومحيطه ، وعصره واخلاقه وادبه وفنه واضحاً بيناً ، وتلك ميزة لاديبنا الكبير لانكاد نجد مثلها عند غيره من الادباء الذين يبرعون في الابداع ، ويقصرون في الوصف ، او يتقدمون في هذا ويتأخرون في ذاك ...

وقد لجأت اليه مكتبتنا العاملة على نشر الآداب العربية والآثار المفيدة حينما رأت حاجة دمشق الى هذا النشر ، فتفضل علينا بسلسلة من الرسائل دعاها : « ائمة الادب » وجعل فكرتها الاساسية ان يلم لمامة موجزة بروح الاديب ثم يرى اثر هذا الروح في تكوين اخلاقه ونفسيته ويرى تجلي هذه النفسية في آثاره الادبية ... وليس الغرض منها التبسط والاسهاب بل الايجاز والاختصار وسد حاجة الطلاب الى مثلها

وقد كانت اولى هذه الرسائل في دراسة الجاحظ والثانية في ابن المقفع ، ولانحاول ان نلخصهما اونبين فضلهما وسمو بحثهما خشية منا ان نبخسهما في هذا البيان والتلخيص حقهما بل ندع القارىء يطالعهما ويحكم عليهما بنفسه

وسيصدر قريباً الرسالة الثالثة :

الوزيران

ابن العميد و الصاحب بن عباد

صفحات الرسالة (٩٦) وثمنها قرشان ونصف مصري

الصبح المنبي عن حيثية المتنبي

ـــــ للإمام يوسف البديعي المتوفي سنة ١٠٧٣ هـ

يقع في مائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير

مانحسب ان في شعرائنا من كتب عنه ودرس اكثر من المتنبي ولكننا لا نرى في كل ما كتب عنه اللهم الا ما كتبه النقاد واضراب النقاد شيئاً يصح ان يسمى نقداً او دراسة ... وكل من تكلم فيه لايعدو ان يكون واحداً من اثنين: مولع بأدب الغرب يحاول تطبيقه على آدابنا واتهام مافيه دون ان يكون له في الادب العربي قدم ثابتة فيحرف ويسف ويحسب انه يقول شيئاً ، وجامد على آداب العرب لايرى لغيرها فضلاً ولايعترف بسواها عبقرية وبراعة فيكتب اليوم كما كان يكتب الناس قبل ثلاثمائة سنة ... على ان فيمن كان قبل ثلاثمائة سنة من استطاع ان ينتهج في كتابته نهجاً صالحاً فيه تقصي العرب وحبهم ، وتحليل العربيين ودراستهم ، وان من هؤلاء البديعي صاحب الصبح المنبي الذي تنشره اليوم مكتبتنا نشراً جيداً والذي بلغ من قدره ان واحداً ممن درس المتنبي لم يستغن عن الاقتباس منه ولا الاستفادة من مادته



المتوفى سنة ٦٧٦

المسماة

بالمسائل المنثورة

صفحاتها (١٣٦) ثمنها خمسة قروش مصرية



تقع في (١٨٠) صفحة ثمنها ٥ قروش مصرية

جمع السيد الكتاني بين علمي الظاهر والباطن وامتاز بأخلاق لاتعدو ان تكون مرآة تتجلى فيها السنة الطاهرة على صاحبها اشرف الصلاة والسلام. ومهما يكن في الامر فإن لكتبه ظاهراً وباطناً اما ظاهرها فهو مايرى فيها القارئ من علم وحجة، واما باطنها فهو ما يفيض من ثنايا سطورها من نور الهي هو نور طريق الله ... ورسالته المستطرفة مفيدة لكل مشتغل بعلم الحديث ومعرفة رجاله